رواية
كلبش
KALABSH
يوسف حسن يوسف
ساحر الكتب

على رجلي دم.. نظرت له ما احتملت

على إيدي دم.. سألت ليه؟ لم وصلت

على كتفي دم.. وحتى على رأسي دم

أنا كلي دم.. قتلت؟..... والا اتقتلت

عجبي ..

صلاح جاهين !!

إلى العدالة الغائبة

يوسف حسن يوسف

إلى من كنت أتمنى وجودهم

إلى سبب وجودي في الحياة

إلى من تكمل معي المشوار الطويل

شكرًا لكم

كلبش بالنسبة لي خطوة في طريق طويل.. خطوة منذ أواخر ٢٠١٠ وحتى ٢٠١٨.. والحمد لله رب العالمين إن ربنا كلل هذه الخطوة بالنجاح الساحق وأن القصة قادرة بفضل من الله عز وجل أن تكون قصة الناس والشارع.. وأرجو أن تنال الرواية نفس النجاح الذي نالته قصة المسلسل وخصوصًا هي الرواية الثانية لي بعد رواية جروبي والتي حققت نجاحًا لم أكن أتوقعه.. وأن ينال الجزء الثاني من الرواية (كلبش ٢ الجزء الثاني) نفس النجاح

مع حبي وتقديري للقارئ الكريم

يوسف حسن يوسف

كـان الليـل بـاردًا رتـيبًا للغايـة. أمـا البـرودة، فقـد اعتادها يوسف منذ أول أيام تدريبه. لكن الرتابة لم تكـن ممـا تـوقع أن يشـعر بـه أبدًا يـوم اختـار هـذا الطريق لحياته.

النقيب يوسف الألفي يجلس متراخيًا على كرسيه فـي مكتبه الصغير في قسم حي الدرب الأحمر، وراءه نافذة صغيرة لا يدخل منها إلا صراخ الريح والحـريم، وأمامـه البـاب المغلـق، الـذي لا ينفتـح لبُشرى أو بهجة أبدًا، وفي الركن كرسيان خشبيان ينتظـران الزائـرين مـن أصـحاب المصائب، وعلـى الحائط تتعلق بضعة رفوف قديمة تحمل ملفات لم تحتضن يومًا حكاية طيبة.

تجاهل يوسف كل ذلك، وأمسك بالإطار الخشبي أمامه، يتأمل صورة قديمة لموقع خدمته السابق. يحاصـره الإطـار وقـد وقـف وبجـواره سـبعة مـن زملائـــه مكتملـو العتـاد وحـاملون لأسـلحتهم، يبتســمون للمصـور كأنـهم قـد ضـمنوا عودتـهم سالمين. لم تقو عيناه على النظر تحديدًا في وجه

زميله الواقف بجواره في الصورة. زفر في ضيق وثبت عينيه على نفسه، ينظر لهيأته فيها، ويتذكر كيف كان حاله.

كان يوسف شابًا ثلاثينيًا مهيبًا، فارع الطول عريض الجسد، ذا شارب كثيف وملامح وسيمة برغم حدتها، وله شعر أسود قصير وبشرة خمرية دكنتها الشمس. في الصورة، كان يرتدي نظارة شمس، ويبتسم بثقة من وقف في المكان الذي حلم دومًا أن يكون فيه، بين رفقائه في فرقة العمليات الخاصة. ها هو الآن ينظر للصورة بحسرة، ويتساءل كيف انتهى به المطاف في هذا المكان المختلف كل الاختلاف عن حلمه وما تهيأ له طول حياته.

نادى على العسكري أن يُعد له كوبًا آخر من الشاي قبل أن ينام في مكانه من الملل؛ لكن من فتح الباب كان أمين الشرطة مصطفى الذي قال بعد أداء التحية:

- في إخبارية جت دلوقتي يا فندم.. عربية خبطت

واحدة عن عمد وجريت؛ حسب اللي اتصل.

أفاق يوسف من تراخيه، وقام من كرسيه وأخذ معطفه من على المكتب وقال:

- طب يلا قدامي جهز البوكس.

أخرج يوسف مسدسه من جرابه، وتأكد أن الخزانة كاملة، وهو يفكر ما علاقة حادث سيارة برصاص مسدسه، وكيف يغلب الروتين المنطق دائما. خرج من مكتبه، فكاد يصطدم بالعسكري عائدًا بكوب الشاي، فقال له:

- اشربه انت.

أمامه، كان مصطفى في آخر الممر يجري وهو يدفع كرشه أمامه. بينما لمح مؤخرته تختفي من بعيد، تساءل يوسف في نفسه كيف يعمل أمثال هؤلاء في مكافحة الجريمة. هذا المصطفى لن يقدر على مطاردة لص غسيل مصاب بالأنيميا. حالما وصل إلى بوابة القسم، صرخ الأمين في العساكر لكي يحملوا أسلحتهم ويقفزوا في

البوكس، ثم فتح الباب الأمامي ليوسف..

- اتفضل يا باشا.

انطلق مصطفى يقود البوكس كما لو كان يعيث في رمال الصحراء الخالية من الناس، ورغم ذلك شرد يوسف مجددًا في الماضي. تذكر سيارات الدفع الرباعي التي ركبها في آخر عملية له. كان قد اتخذ نفس الكرسي الأمامي بجوار السائق، لكن مع اختلاف ارتفاع وهيبة السيارة، فهذا البوكس المتهالك يبدو كما لو كان قد تم تجميعه من قطع الخردة. تساءل لماذا لم يأت حظه على الأقل في أحد الأحياء الراقية التي يتم تحديث مركبات أقسام الشرطة بها أولًا بأول، لتكون على اتساق مع فيللات علية القوم. ذكره هذا بأمر ما، فسأل مصطفى:

- مش مشغل السرينة ليه؟

بدت الحيرة على وجه مصطفى، الذي سأل بدوره:

- أشغلها ليه يا باشا؟ البت ماتت فعلًا مش رايحين

ننقذها.

- أيوة يعني مش فيه مسرح جريمة متساب في الشارع، مفيش حاجة تحفظه؟

- أيوة بس الوقت متأخر يا باشا.

نظر يوسف لمصطفى غير مستوعب ولا مستغرب لـرده. لـم يكمـل النقـاش؛ فـلا فائـدة فـي أمثـال مصطفى. التفت ينظر من النافذة، إلى أنوار الفيلل المنعزلة على ذاك المرتفع الهادئ بعيدًا عن الطريق. تذكر فيلا هارون شاكر، اللواء السابق والمليونير وصـاحب العلاقـات الوثيقـة مع كـل الشـخصيات المـهمة فـي البلـد. هـذا بـدوره ذكره بابنتـه كنزي، الحلـم الجميـل صعب المنال بسـبب كل الظـروف. أزعجتــه الــذكرى، فحــاول إخــلاء ذهنــه مـن هـذه الخـواطر بالعودة إلى الحديث مع رفيقه الكريه.

- لسه كتير يا مصطفى؟

- ده المكان المفروض يا باشا.

هدوء وليل كان أولى به بعض الموسيقى الهادئة والتأمل في بخار الماء المتصاعد مع الأنفاس، لكن غشيه حادث، وبعض الأشخاص الملتفين حول ما بدا أنها جثة مغطاة بأوراق الجرائد، ورفيق سمج اسمه مصطفى. توقف البوكس، وترجل يوسف ومصطفى ومن ورائهم العساكر، وتقدموا نحو الجثة، فتراجع الواقفون خطوة للوراء.

كانت الجثة على الرصيف، فثارت التساؤلات في عقل يوسف. رفع وجهه للواقفين يسألهم بنبرة جافة:

- مين شاف اللي حصل؟

ابتعد الجميع خطوتين أخرتين للوراء، ما عدا شابين وقفا مكانهما وقال أحدهما:

- احنا يا باشا.

- اسمك ايه؟

- اسمي إبراهيم.

فحصه لبرهة بعينيه، ثم قال له في هدوء صارم:

- لما ظابط يسألك عن اسمك تقوله بالكامل يا ابراهيم. ايه اللي انت شفته؟

احمر وجه الشاب، وانقلبت سحنته وهو يكاد يتمنى لو أنه قد انصرف هو وصاحبه ولم يقحما نفسيهما في الأمر مع هذا الضابط السخيف.

- احنا كنا واقفين بنشرب حاجة ساقعة عند الكشك اللي على الناصية ده.....

انطلق الشابان في الحكي عن كيف كانت واقفة هذه الشابة على الرصيف تتلفت كما لو أنها تنتظر أحدًا، حينما اقتربت منها سيارة سوداء كبيرة، وناداها من بداخلها. جذب انتباههما محاولتها تجاهل نداءاته، لكنه اقترب منها أكثر بالسيارة، وفتح الباب لها، فابتعدت عنه عدة خطوات في قلق، لكن السيارة فجأة صارت فوق الرصيف تدهسها تماما، ثم تتراجع وتجري هاربة قبل أن يفيق أحد من ذهوله.

- والله كله حصل فجأة يا باشا وصاحب الكشك برضه شاف اللي حصل..

قالها مشيرًا إلى أحد من ابتعدوا في وقفتهم وهو بادي الذعر يحاول أن يتظاهر أن الشاب لم يشر إليه هو.. ألقى إليه يوسف نظرة ثبتته في مكانه، ثم عاد إلى محدثه:

- ايه اللي حصل بعد كده؟

- العربية اتخبطت جامد في السور اللي هناك ده بس الواد ولا همه، ورجع لورا وداس بنزين وصاروخ.. ده حتى الكاوتش علم في الأسفلت هناك

سأله يوسف:

- شكلها ايه عربيته؟

رد بيباوي صديق إبراهيم:

- عربية سودا كبيرة فور باي فور، بس والله ملحقنا نلقط نمر، أصل النمر اللي بقت حروف وأرقام دي

صعبة لا مؤاخذة يا باشا. احنا قلنا نلحق البنت أحسن، فجرينا نشوف لو لسه فيها نفس.

قال إبراهيم بصوت مرتبك:

- النمر أنا لحقت أشوفها.. كانت.. تقريبا.. هي يا فندم أ ب د 152..

ضاقت عينا يوسف وهو يتأمل الصديقين الذين اختلفا، ثم قال وهو يشير للأمين أن يأخذهما:

- خلاص انتم هتشرفوا معانا ناخد أقوالكم.. (أشار لصاحب الكشك) وانت كمان هنستدعيك، سلم بياناتك للأمين مصطفى

شحب وجها الشابين ونظر بيباوي إلى إبراهيم في غيظ، بينما أحاط بهما العساكر، واتجهوا نحو البوكس. تقدم يوسف نحو الجسد الساكن على الأرض، وأشار إلى مصطفى، فركع على ركبتيه يرفع أوراق الجرائد عن الوجه، فبدت امرأة شابة في عقدها الثالث أو أوائل الرابع، تجمد الدم على فمها، وتحملق عيناها المفتوحتان في سواد سماء

الليل. أشار إلى مصطفى، فغطى وجهها مجددًا، وتلفت حوله، فوجد حقيبة نسائية ملقاة على مسافة منها، ومحتوياتها مبعثرة حولها. في الغالب أن هناك من عبث بها وأخذ ما بها من مال. لكن ما يتمناه فقط أن يكون قد ترك ما يدل على هويتها. وجد في وسط الحاجيات الملقاة بطاقة، تأكد من أن الصورة فيها تشبهها فعلا، فحمد الله، وقرأها وهمهم:

- ممممم.. دكتورة رانيا.. يا ترى ايه اللي ممكن يخلي حد يعمل فيكي كده؟

أخذ الحقيبة ليضمها إلى ما سيسلمه إلى الطب الشرعي، وعاد وسأل مصطفى:

- كلمت الاسعاف؟

- الإسعاف؟ ليه يا باشا هي مش ماتت فعلًا؟

انفعل عليه يوسف:

- يا ابن المتخلفة انت محششِ النهارده؟.. اتزفت

اخلص اتصل بيهم

سمع أحدهم يقول: الإسعاف في الطريق يا باشا، أنا طلبتهم من بدري.

هم بالرد عليه، لكنه أغلق شفتيه ثانية، وأمسك بهاتفه يحدث شخصا ما يقص عليه الأمر في اختصار شديد ويمليه أوصاف السيارة، بينما أخرج مصطفى جهازه اللاسلكي مسرعًا وهو يقول: حاضر حاضر حالًا يا باشا، ثم يحادث الإسعاف بنبرة قوية.

انفض الجمع، ولم يعد هناك من هو واقف سوى العساكر المرتعشين من البرد، بينما جلس الشابان النحيلان داخل البوكس نادمين أن لم يجريا إلى بيتيهما لحظة رأيا الحادث، وعاد يوسف يسترخي في كرسي السيارة الأمامي مستمتعًا بوحدته، وقد استند مصطفى إلى البوكس بالخارج وأشعل سيجارة.

أخيرًا، وصلت سيارة دورية مع سيارة الإسعاف

التي حملت فريق الطب الشرعي، الذي أخذ يلتقط الصور للضحية في سرعة، قبل أن تحمل الإسعاف الجثة. تطوع بعض العساكر بتغطية الدماء المتبقية بالرمال، ثم ركب يوسف سيارة الدورية ليعود بها، بينما ترك البوكس يقوده مصطفى، إلى القسم بالعساكر والشابين.

نظر يوسف إلى ساعته، كانت قد جاوزت الثانية ليلًا. التفت إلى قائد سيارة الدورية بجانبه.. ملازم أول، شاب في أول مشواره. ابتسم لتذكره كيف كان يبدو في بدايته أيضًا، قبل أن تشد عوده التدريبات والمهام. عاد بذهنه لأول اشتباك شارك فيه، وأول مرة قام بتصفية عنصر إجرامي في أحد المواجهات مع شبكة عملاقة لإتجار بالمخدرات. تساءل عن مصير زملائه الآن.. بينما هو يجوب الشوارع الهادئة ليلًا، ربما يستعدون هم الآن لضرب مقر إرهابي أو عصابة مسلحة. ربما هم في جحيم من النيران، بينما يستمتع هو بهدوء الليل والشارع الخالي، حيث لا توجد أمامه سوى سيارة واحدة على جانب الطريق. لحظة واحدة!

- هدي كده لحظة!

قالها يوسف فجأة للضابط الشاب..

- فيه إيه يا فندم؟

- اطفي الأنوار وعدي بالراحة من جنب العربية اللي واقفة هناك دي.

إنها سيارة سوداء فور باي فور كبيرة.. واقفة بجوار أشجار الرصيف، وحولها بضعة شباب يتضاحكون بصوتٍ عالٍ كالسكارى. هل يعقل أن تكون هي؟!

اقتربوا ببطء، ويوسف يدقق في الظلام.. بالفعل كانت أول أحرف لوحتها كما تذكر «أ ب..»، هذه هي السيارة، لا مجال للشك!.. ماذا يفعل هؤلاء المجانين هنا قرب مسرح جريمتهم؟

قال يوسف، بينما أخرج سلاحه وجذب زناده يعده للإطلاق:

- عدي جنبهم بهدوء وفرمل قدامهم وهننزل.

على المقعد الخلفي، كان أمين شرطة جالسًا وبيده سلاح آلي، قال ليوسف:

- ما مش لازم يا باشا.. العيال دي شكلها لبش وبتوع مخدرات، وممكن يبقى معاهم سلاح. خلينا نكلم القسم يبعت لنا قوة الأول.

نظر نحوه يوسف في استحقار وسأله:

- اسمك ايه؟

- أبوزيد يا باشا.

- مش عيب على شنبك ده يابوزيد يبقى في ايدك السلاح ده وخايف من شوية الصيع دول. انشف.

بدا على أمين الشرطة الانزعاج، لكنه لم يجرؤ على الرد. هدّأ الضابط الشاب سرعة السيارة، وأخرج سلاحه بدور، وأمسكه بيده.

قال يوسف فجأة: دلوقتي!

فرمل الضابط الشاب فجأة، فارتفع صوت الاطارات وهي تتوقف، وقفز الثلاثة من السيارة على بعد بضعة أمتار من السيارة السوداء. صاح يوسف بصوت جهوري هز هدوء الليل:

- ماحدش يتحرك!

جرى إليهم شاهرًا سلاحه نحوهم. كانوا ثلاثة شباب مفتولي العضلات، رأوه فقفزوا من أماكنهم مذعورين، وجرى أحدهم دون تفكير واختفى في الظلام بسرعة، بينما تردد الثاني للحظة، قبل أن يقرر الجري هو الآخر. الثالث حاول أن يفعل مثل رفيقيه، إلا أنه سقط في مكانه من أثر السكر، ليمسك به الضابط الشاب في الحال، يحميه من خلفه مدفع أبي زيد المشهر في وجه الفتى. جرى يوسف وراء ذلك الذي فر، لكنه لم يكن يعرف هذه المنطقة، على عكس هذا الطريد المجهول، الذي أسرع يشق الليل بقفزات قدمه السريعة. لكن يوسف كان مدربًا على ملاحقة أيٍ كان، في أي مكان. كان يتساءل إن كان له أن يطلق النار عليه

ليوقفه، أم أن هذا لا تمارسه «شرطة المدنيين». لكن ما أجاب عن سؤاله ذلك الظل البعيد الذي وقف مكانه والتفت نحوه فجأة مخرجًا سلاحًا من حزامه، ومطلقًا طلقتين نحوه فجأة، عبرتا فوق رأسه مباشرة. انبطح يوسف أرضًا، ثم قام في أقل من ثانية مسرعًا يكمل الجري. رفع سلاحه دون تردد هذه المرة، وأطلق رصاصة نحو الظل المبتعد، لكن ظلام الليل حال دون أن يصيبه.

قفز الظل من فوق سور بدا أنه لفدادين أرض زراعية، حيث ارتفع النخيل ظاهرًا من وراء السور. أسرع وراءه يوسف، وتجاوز السور في قفزتين دون أي مشقة، فهبط الناحية الأخرى، فوجد الظل يترنح في ساحة مكشوفة وهو يحاول الاستمرار في جريه. كان قد صار الآن هدفًا مكشوفًا، فرفع يوسف مسدسه وأطلق رصاصتين، كادتا أن تصيبا الظل هذه المرة، لولا القدر. بدا على الشاب الهارب أنه أدرك أن سيسقط لا محالة، وأن الأهون عليه أن يُقبض عليه لا أن يقتل، أو ربما تمكَّن منه السكر فقط أخيرًا، فسقط على ركبتيه رافعًا يديه لأعلى،

فجرى يوسف إليه، ولم يتمالك نفسه أن يركله في رأسه بشدة، فسقط فاقدًا الوعي.

وقف المتهمون أمام يوسف في مكتبه، ليأخذ أقوالهما للمحضر، بينما جلس بجانبه الكاتب. في ضوء المكتب، بديا كشابين أنيقين، يرتديان ملابس راقية. الشاب الذي سقط في البداية كان يرتدي معطفًا من الصوف، تحته قميص أبيض، بينما الآخر الذي أمسك به يوسف يرتدي كنزة زرقاء وبنطال جينز. سأله يوسف:

- أساميكم؟

نظر الأول لزميله، الذي نظر ليوسف بسخرية ولم يرد.

- أساميكم يا كلاب! سامعين ولا أسمعكم!

قال الشاب الأول:

- أحمد شفيق يا باشا.

بينما ضحك الشاب المستهزئ ضحك قصيرة وقال:

- ضياء.. ضياء جدو..

بدا عليه أنه انتظر ردة فعل من يوسف، الذي أكمل:

- انتـــم متـهمين بـالقتل العمـد لـدكتورة رانيـا عبدالوهاب.. أقوالكم؟

تجاهل ضياء السؤال بأكمله، وانحنى على المكتب وكرر:

- جدو.. مسمعتش؟

ثم عـاد للـوراء، عنـدما رأى النظرة العدائية على وجه يوسف وقال:

- شـكلك جـديد هنـا. مـش هتكلـم غـير فـي وجـود المحامي بتاعي، زمانه على وصول.

أدرك يوسف أنه سيحتاج معهما للكثير من الوقت، فنادى على مصطفى من الخارج:

- هات لي الشهود من بره..

خرج مصطفى وعاد بالشابين المرهقين، فسألهما يوسف مباشرة:

- دول اللي كانوا سايقين؟

فرد بيباوي:

- مش متأكد يا باشا.

بينما قال إبراهيم:

- آه هو يا باشا.. أنا شفت الوشوش دي وهم معديين جنب الكشك كانوا مشغلين أغاني بصوت عالي فخدت بالي..

ضحك ضياء مجددًا مستهزئًا، فانفعل يوسف:

- خد الكلاب دي على الحجز يتربوا شوية لحد ما أفضى لهم.

ثم التفت نحو الشاهدين وقال:

- اتفضلوا اقعدوا هناخد أقوالكم وتروحوا..

* * *

خارج القسم، وقف أبوزيد يتلفت حوله، قبل أن

يأخذ جانبًا ويخرج محموله ويتصل برقم ما.

- آلـو.. سـمير باشـا؟ للأسـف عنـدي أخبـار مـش كويسة..

على الناحية الأخرى من المكالمة، كان المشهد في غاية الاختلاف. كان سمير جدو الثري الخمسيني جالسًا في شرفة قصره الكبيرة، يشاهد التلفاز ويحتسى كأسًا.. رد عليه بهدوء:

- خير؟

- ابن حضرتك ضياء دلوقتي في الحجز مقبوض عليه..

اعتدل سمير جدو في جلسته فجأة، وقال:

- ازاي؟ ايه اللي حصل؟

تلعثم أبوزيد وهو يرد:

- مفيش الظاهر هو وصحابه كان مقضيين ليلة حلوة مع بعض وبعدين عملوا حادثة وفيه واحدة

ماتت..

هدَّأ سمير جدو نفسه مفكرًا أن لا شيء سيحدث. يعرف كيف يتصرف. قال:

- خلاص هتصرف أنا.. شوف لو هو محتاج حاجة خليك معاه.

رد أبوزيد مسرعًا:

- طبعًا يا باشا ده في عنينا..

أغلق سمير جدو المكالمة في وجه أبوزيد، وسارع بالاتصال بمحاميه الأستاذ تركي ليذهب لنجدة ضياء، الذي أكد له أن ضياء باشا سيخرج كالشعرة من العجين، وسيطمئن قلبه عليه.. ضحك سمير جدو وقال:

- ما هو ابن الكلب مش مركز في الشغل ومقضيها..

ثم أغلق المكالمة، وعاد إلى ما كان عليه.. سيمر الأمر على خير.. لا مكروه يمكن أن يحدث له أو عائلته..

* * *

لكن في الصباح التالي، استيقظ سمير جدو على مكالمة مقتضبة من المحامي، تخبره بأن الوضع أعقد مما ظنا..

- ضياء وصاحبه ممسوكين تلبس، وفيه اتنين شهود عليه، والقضية شكلها صعبة..

اعتدل سمير في مرقده وسأله:

- يعني المفروض نعمل ايه دلوقتي؟

قال أستاذ تركي:

- أنا جاي لحضرتك دلوقتي نتناقش في ايه اللي ممكن ننفذه..

- تمام أنا مستنيك.. وكلم لي مصطفى وأبوزيد كمان هاتهم معاك..

- تمام يا باشا..

* * *

جلس سمير جدو مع أستاذ تركي وأميني الشرطة مصطفى وأبوزيد في حديقة قصره، يستعلم منهم عما حدث بالتفصيل. قال أبوزيد:

- والله حضرتك أنا حاولت من الأول خالص أبعد الضابط عنه وكل حاجة، بس هو ضابط جديد كده وعِندي ومش جايبها لبر.

أطفأ سمير جدو سيجاره أمامه وسأل:

- اسمه ايه؟

- يوسف الألفي يا باشا..

- ويوسف باشا ده هيعملنا مشاكل ولا ايه؟

سارع مصطفى بالقول:

- مفيش حد يقدر يعمل لحضرتك مشاكل يا باشا.

قال تركي:

- موقفهم في القضية صعب ولازم نتصرف بسرعة.. أهم حاجة الشهود دول نحاول نسايسهم ونخلص منهم، بعدها أي دليل تاني أقدر أتصرف فيه..

فكر سمير جدو لحظة وقال:

- مممم.. نخلص منهم بتقول؟

أدرك تركي ما يفكر به سمير جدو، فسارع بالقول:

- نشوف يعني ديتهم قرشين ونشتري سكوتهم ونكبر دماغنا.. كده كده بمجرد ما يعرفوا عن سعادتك أو الطوانسي باشا هيوافقوا على طول.

اعتدل سمير جدو في مجلس وقال:

- طب مستني ايه؟ اتأكد لي ان الدنيا هتمشي..

- من عنيا يا باشا.. هحضر العرض الأول بس على النيابة مع ضياء بيه وهجيب عنوانينهم وهنطلع على طول..

التفت سمير جدو للأمينين وقال:

- أما انتم بقى فخلوا عينكم على يوسف أفندي ده أما نشوف آخرته ايه.. يلا اتكلوا..

أومأ الاثنان، وقاما من مكانهما بسرعة مغادرين..

* * *

صعد سمير باشا متأففًا، ومعه تركي المحامي، على درجات البناية القديمة. وصلا لباب الشقة، فطرقه تركي، ففتحت امرأة عجوز، نظرت إليهما متعجبة وسألت:

- خير مين؟

- إبراهيم ابن حضرتك موجود يا حاجة؟

سألها تركي، فدعتهما للداخل وهي تنادي:

- إبراهيم.. جاي لك ضيوف..

خرج إبراهيم من غرفته مستغربًا، فهو لم يكن يتوقع أحدًا، وسأل:

- ضيوف مين؟.. مين حضرتك؟

رد تركي مادًا يده مصافحًا:

- أنا تركي محامي سمير باشا والد ضياء.. (أشار إلى الرجل الثاني) وده سمير جدو باشا، رجل الأعمال المعروف، وجايين نتكلم معاك في موضوع امبارح..

تدخلت أم إبراهيم في قلق:

- خير يا إبراهيم، حصل إيه امبارح؟

رد عليها إبراهيم في ارتباك:

- مافيش يا ماما كنت مقدم على شغل..

بش وجهها وابتعدت وهي تقول:

- ربنا يوفقك يا بني.. طيب أسيبكم لكلام الشغل وأروح أعمل لكم الشاي..

أشار إبراهيم لهما..

- اتفضلوا في الصالون.

دخل ثلاثتهم إلى الصالون الضيق، وجلسوا، وبدأ تركي بالحديث:

- بص يا إبراهيم يابني.. انت امبارح قابلت ضياء ابننا..

- ضياء؟

- في القسم..

- آآآآه..

تذكر الآن إبراهيم أين سمع اسم سمير جدو من قبل.. قال في شك:

- أيوة فعلًا..

- ضياء ابننا شاب زيك، وطايش زي أي شاب وممكن بيغلط.. بس ده معناه نضيع مستقبله؟

ارتبك إبراهيم وقال:

- أيوة بس دي مش أي غلطة.. ده قتل واحدة..

سارع تركي مقاطعًا بحنكة المحامي:

- لا.. انت متهيألك انك شفته.. بس الدنيا كانت ضلمة، ومافيش حاجة مميزة في وشه تخليك متأكد انه هو اللي شفته سايق العربية زي ما قلت في أقوالك في المحضر..

سكت إبراهيم ولم يرد.. أكمل المحامي:

- وكمان أستاذ سمير جدو رجل أعمال مرموق.. يقدر يساعدك في حاجات كتير.. بتقول انك بتدور على شغل؟

ظل إبراهيم صامتًا يفكر فيما يقال. لم يكن يحتاج للمزيد من التفسير ليدرك ما أتى لأجله هذان الضيفان. كان عليه أن يشحذ عقله ويقرر كيف يواجه عرضهما الذين تيقن أنه قادم في اللحظات القادمة.

- كلنا مستفيدين، انت هتشوف مستقبلك وليك

اللي تطلبه، وضياء هيحافظ على مستقبله، والبنت اللي ماتت الله يرحمها، مفيش حاجة هتغير ده..

- أيوة بس دي هتبقى شهادة زور.. والفلوس اللي هاخدها منكم كلها هتبقى حرام..

ضحك سمير جدو فجأة وقال:

- قوم يا أستاذ تركي يلا نمشي..

نظر تركي مذعورًا لإبراهيم، وقال له وهو يعطيه كارته:

- ده رقمي.. فكر تاني وكلمني لو غيرت رأيك..

فوجئ إبراهيم برد فعل سمير. إنه لم يحاول ولو لمرة واحدة أن يؤثر عليه ليغير رأيه!.. هذا الرجل مختلف وعجيب! حين أفاق من المفاجأة على أمه تحمل صينية عليها أكواب الشاي وتناديه في دهشة، كان ضيفاه قد خرجا، دون حتى أن ينتظرا أن يقودهما إبراهيم للخارج، كما لو كان البيت بيتهما.

* * *

أسرع تركي يلحق بسمير على درجات السلم. قبل أن يفتح تركي فمه، قال سمير في حزم:

- كلم أبوزيد قل له يتصرف..

احمر وجه تركي، لكنه لم يعترض. توترت نبرة صوته وهو يرد في اقتضاب:

- أمرك يا باشا..

رمقه سمير بنظرة مستهينة، وهو يسأل نفسه كيف يعطي ثقته لذلك الهلفوت.

* * *

في القسم، أمسك أبوزيد بذراع إبراهيم، يجره للدور الأسفل. أخذ إبراهيم يكرر سؤاله مذعورًا:

- في ايه؟ أنا معملتش حاجة أنا شاهد!

كان تركي قد كلم أبوزيد ومصطفى، وأبلغهما بأوامر سمير جدو. هما يدركان جيدًا ما تعنيه هذه الأوامر.. ذهبا معا لبيت إبراهيم، وادعيا أن يوسف باشا يستدعيه مرة أخرى، ليسأله في أمر ما قد استجد في القضية. فوجئت والدته طبعًا بأن الأمر يدور حول محضر لا عمل؛ لكن الأمين لم يعط إبراهيم الفرصة للشرح لها. بالكاد سمح له أن يغير ملابسه.

لم يحاول أبوزيد تبرير شيء مما يحدث وهو يجر إبراهيم للغرفة الصغيرة تحت الأرض، والمخصصة لمثل هذه المناسبات. وصل حيث انتظره مصطفى وهو يجهز الأدوات المناسبة، انفتح الباب على غرفة مظلمة، بلا نوافذ، بها مصباح واحد ضعيف.. ودفع إبراهيم إلى الداخل. كان مصطفى هناك، يقوم بإحكام ربط بعض الحبال. نظر إلى الهلع على

وجه إبراهيم، ووجه كلامه إلى زميله دون أن يلتفت إليه:

- متأكد ان لازم؟ أعتقد انه كده استوعب الدرس..

نظر إبراهيم حوله مذعورًا، وبدأ يتذكر الحكايات التي سمعها عن التعذيب في أقسام الشرطة.. أغلق أبوزيد الباب، فانتفض الشاب وصاح:

- فيه إيه؟ أنا والله العظيم ماعملت حاجة!

رد عليه أبوزيد وهو يشمر أكمامه:

- أصل انت يا إبراهيم.. ضايقت حد ماينفعش تضايقه.. انت مين؟.. انت عارف مين اللي انت ضايقته يا ابراهيم؟ عارف؟.. بقى انت يا إبراهيم يا ابن الست الغلبانة اللي مش فاهمة حاجة في الدنيا حواليها دي تضايق ضياء ابن سمير باشا؟.. تؤ تؤ.. ماخدتش في كتاب العلوم ان الحشرات اللي زيك مينفعش تضايق الكبرات..

كان إبراهيم على وشك الانهيار، وخياله يطرح

الوجع في جسده كله، مستبقًا الواقع.. خرج صوته متقطعًا وهو يبكي ويقول:

- أنا آسف.. خلاص.. والله هعمل اللي عايزينه..

- أمك يا ابراهيم ممكـ.....

- لأ.. وحياة ولادك لأ.. أنا هعمل اللي تقول لي عليه يا باشا

أمسك مصطفى بذراع زميله وهو يقول:

- خلاص يا أبوزيد، كده كفاية، هو اتعلم الصح ومش هيغلط تاني..

سارع أبوزيد بالقول في سادية:

- لأ.. لازم يتعلم الدرس للآخر، والا هيفتكر انه هيفلت بالساهل بعد كده.

لم ينتظر ردًا آخر.. انهال أبوزيد على إبراهيم بالضرب، ثم نهر مصطفى، فبدأ مشاركته، حتى انهارت قوى إبراهيم تمامًا وسقط على الأرض.

رفعاه معًا، وكبلاه على الحائط، وربطه أبوزيد بسلكين، وصاح في مصطفى:

- شغل!

وأطاع مصطفى أمر أبوزيد.. وعلت صرخات إبراهيم.

* * *

بعد أن انتهى مصطفى وأبوزيد من ابراهيم، كان حماسهما في أوجه، فذهبا في التو إلى بيت بيباوي، وأخذاه بنفس الحيلة. لكن هذه المرة كان عطش أبوزيد للاستمتاع بضحيته قد زاد. أمر مصطفى بأن يزيد شدة التيار، وبيباوي يخرج صوته بالكاد:

- أرجوك كفاية.. هعمل كل اللي عايزينه..

قال مصطفى:

- ما كفاية يا أبوزيد الواد هيخلص في ايدك.

صرخ فيه أبوزيد:

- شغل!

ارتفعت صرخات بيباوي من الألم، بينما تعالت ضحكات أبوزيد كأن به مس شيطان. رائحة الشياط عبقت الغرفة، وجاهد بيباوي ليقول بصوت مبحوح:

- أرجوك.. أنا بموت..

صاح فيه أبوزيد:

- ما تموت! عشان تتعلم ما تجرأش على أسيادك تاني يا جربوع!

- والله مكنتش أعرف..

- مش فارقة.. الغلطة بفورة.. شغل يا مصطفى..

- كفاية يا أبوزيد كده هيروح مننا..

- قلت لك شغل!!

بالفعل سار التيار في جسد بيباوي، الذي صرخ هذه المرة للمرة الأخيرة، ثم سكت برغم استمرار التيار.. أوقف مصطفى الكهرباء وردد:

- ايه ده؟ ايه ده!

جرى نحوه ليفك قيده، وهو يقول:

- الواد مات يا أبوزيد!

نفخ أبوزيد سيجاره منتشيا وهو يهز رأسه باستهتار:

- ولا مات ولا حاجة، واد فرفور أغمى عليه قبل ما الحفلة تحلو.

- يا أبوزيد الواد مش بيتنفس..

سكت أبوزيد.. نظر بقية السيجارة من يده بعيدًا.. وبدا كأنه يفيق من سكرته ليدرك فداحة الموقف.

- والعمل يا أبوزيد.. هنلبس فيها ومحدش هيقف معانا.. محدش بيقفل عالبلاوي دي غير لو اللي

موته ظابط..

خطرت الفكرة فجأة على بال أبوزيد فرد:

- بالظبط.. وده اللي حصل.. موته ضابط! الضابط موت الشاهدين وهو اللي بيستجوبهم!

- شاهدين مين!.. انت بتفكر في ايه يا راجل انت

تجهم أبوزيد في وجه زميله.. قال في صرامة

- شيل الجتة دي على جنب على ما اتصرف أنا.

لم ينتظر ردًا من مصطفى، خرج أبوزيد من «التلاجة» كما يسمون هذه الغرفة، لبرودتها الدائمة. فكر: ربما سيساعد هذا في الحفاظ على الجثة. صعد درجًا صغيرًا، ثم سار في ممر ضيق نحو غرف الحجز، وفتح أحد الأبواب بمفاتيحه ونادى بصوتٍ عالٍ:

- تامر نكسة! اتلحلح وتعالى يابن الكلب!

من ظلام الحجز خرج شابٌ ذو عينين منتفختين

وبشرة داكنة وجسدٍ نحيل، وقال بصوتٍ أجش:

- نعم يا باشا..

في الركن، لمح أبوزيد إبراهيم متكورًا على نفسه ما زال يئن.

- إنجر قدامي عايزك.

سار أبوزيد بتامر نكسة أمامه عائدًا للممر المظلم للثلاجة، وتوقف في نصف الطريق حيث لن يسمعه أحد، وقال له:

- انت عارف انك المرة دي وقعت جامد ومالكش خروج مش كده.

- ربنا الساتر يا باشا أنا بجري على عيال..

- عارف.. وعشان كده ممكن أساعدك، وانت تساعدني..

نظر نحوه نكسة في شك وقال:

- خير يا بيه..

- هو خير عليا وعليك.. أنا ممكن أخرجك من الحجز، وأغير حاجات في الورق قبل ما يتكتب تخليك ولا كأنك دخلت. ولما تطلع هسيبك تعيش حياتك ولا كأن حاجة حصلت، وتكمل اللي كنت بتعمله..

ضيق نكسة عينيه وسأله في حذر:

- وده العز ده كله قصاد ايه يا بيه؟

- انت قتلت قبل كده يا نكسة، مش كده؟

صاح نكسة بصوتٍ عالٍ:

- لأ طبعًا يا باشا!

لطمه أبوزيد على وجهه وقال:

- وطي صوتك يا ابن الكلب، وماتكدبش عليا أنا عارف بلاويك.. ماتخافش.. أنا عايزك تعملها تاني..

- نعم! مين؟

- هعمل لك كل اللي قلت لك عليه ده بشرطين.. الأول، الواد اللي لسه داخل لكم النهاردة ده، عايزك تخلص عليه..

- نعم؟ في حجز القسم! ده أنا رحت في داهية خلاص!

- لا.. استنى يا غبي اسمع الشرط التاني.. الشرط التاني انك تقول واللي معاك في الحجز - اللي انت كبيرهم- ان الرائد يوسف اللي عملها.. وأنا شاهد معاك..

ذهل نكسة.. الأمين أبوزيد يريد منه تلبيس الرائد جناية قتل!.. ظل مثبتا عينه في عين الأمين لحظة مفكرًا، ثم قال:

- وأضمن منين يا باشا؟

- يا حمار.. ضمان ايه انت قضيتك أصلا حكمها إعدام. ماتفاصلش ياض، يا تقبل وتاخد فرصة وتجري على عيالك.. يااااا

فكر نكسة مرة أخرى.. الأمر بدا له كمهزلة سوداء.. ضحك ضحكة خافتة، ثم قال:

- تمام.. أنا موافق..

سأله أبوزيد:

- مش عايز بشلة ولا موس؟

- لا يا باشا.. (ضحك ثانيةً مستهزئًا بالأمين في اجتراء هذه المرة).. هو الرائد لا مؤاخذة يعني هيقتل ببشلة وموس؟ ايه يا جناب الأمين باشا! عموما سيبني أنا أتصرف..

ضحك أبوزيد دون ممانعة للإهانة الواضحة في نبرة وكسة، وقال:

- عفارم عليك يا ابن الكلب!

عاد به مرة أخرى للحجز، ثم اتجه للثلاجة، ليطمئن مصطفى المذعور أن كل شيء سيكون على ما يرام.

كانت الليلة الباردة تأكل في وعي يوسف، الذي يحاول أن يظل مستيقظًا، برغم إحساسه بأنه يوشك على السقوط من على كرسيه. البرد الذي اشتد، مع مجهود الليلة الماضية، ودور أنفلونزا قد أصابه، حاصروه بالوهن، ويوسف يكره الضعف ويراه عارًا. كان في غاية الضيق من إحساسه بالمرض وعدم قدرته على مباشرة مهام نوبته الليلية المعتادة.

وجد يوسف رأسه فجأة على المكتب، فأدرك أن غفل في مكانه ونام رغمًا عنه. نظر إلى الساعة، فوجدها الواحدة بعد منتصف الليل. ما زالت أمامه نوبة طويلة، لكن البرد حط على المنطقة بالهدوء، فعساها تكون ليلة هادئة، فلينعم بالقليل من النوم، فإن جد أمر ما، لن يتوانى ألف شخص عن إيقاظه دون رحمة.

في المرة التالية، استيقظ يوسف الساعة السابعة صباحًا، قبل نهاية نوبته بساعة واحدة. أحس بحركة غير مألوفة في الممر بالخارج، فقام من

مكانه وفتح الباب، فوجد عددًا من العساكر يسيرون بسرعة نحو باب القسم، وسمع أصواتًا متعالية في الخارج. نادى أحد العساكر يسأله عما يحدث، فأجابه:

- مش عارفين يا باشا والله.. أهالي بيسألوا عن ولادهم وعاملين قلق..

خرج يوسف ليرى بنفسه ما يحدث، فرأى جمعًا من الغاضبين. إنهم أهل بيباوي، وقد حضر معاهم محامي، ووالد إبراهيم الذي حضر ومعه جمع من أهل منطقته. صاح فيهم يوسف:

- في إيه؟ عايزين إيه؟

أجابه والد إبراهيم بصوتٍ عال:

- يا باشا أنا ابني ماعملش حاجة ومارجعتهوش البيت من امبارح.. احنا عايزين نشوفه وماحدش راضي يدخلنا..

- ابنك مين يا أستاذ؟

- أنا ابني إبراهيم زكريا يا باشا وامبارح خدتوه وصاحبه بيباوي من البيت..

صاح والد بيباوي:

- أيوة يا باشا وأنا والد بيباوي، واحنا عايزين نتطمن على ولادنا.. احنا اتقال لنا انكم عايزينهم في شهادة في قضية بس!

تعجب يوسف وقال:

- إبراهيم؟ بيباوي؟ دول روحوا بيوتهم من أول امبارح وماحدش طلبهم..

- أمال الأُمنا اللي جم خدوهم يا باشا دول مين! احنا عايزين نقابل رئيس المباحث!

تركهم يوسف وعاد مسرعًا للداخل.. ما الذي يدور هنا من وراء ظهره؟ أمناء أخذوا الشابين من بيتيهما! ماذا فعل مصطفى اللعين؟

نادى أحد الأمناء بجواره، وسأله:

- الزفت مصطفى واللي معاه أبوزيد فين؟

- معرفش يا باشا ماشفتهمش النهارده.

لم يأتيا اليوم للعمل؟ ما الذي يدور؟ صاح فيه:

- طب اجري حالًا على الحجز شوف لي الولدين دول لو جوا..

دار يوسف حول نفسه مفكرًا في قلق.. كيف يحدث هذا بدون علمه؟

فجأة لمح الأمين يجري نحوه عائدًا بوجهٍ مذعور، ويقول قبل أن يأخذ أنفاسه:

- العيلين ما بيحطوش منطق! والعيال اللي معاهم في الحجز بيقولوا ان سعادتك اللي عملت كدا في التلاجة!

- نعم؟ انت بتقول ايه!!

رد يوسف مصدومًا!.. أسرع جاريًا نحو الحجز، وأمر الأمين المناوب بفتح الباب ودخل.. ليجد

جثتين على الأرض في وسط غرفة الحجز، وكل المحتجزين ملتصقين بالحائط. صاح فيهم:

- ايه اللي حصل يا ولاد الكلب!

لم يرد عليه أحد، كأنه لم يسأل. ثار عليهم غاضبًا، وبدأ يركل ويلكم كل من وما طالته يداه وقدماه، فبدأ من في الحجز بالجري من أماكنهم، أو محاولة مقاومته، حتى كاد بعضهم ينال منه، لولا تدخل العساكر من الخارج، الذين دخلوا بعصيانهم على المحتجزين، وسحبوا يوسف يهدئونه، ثم أخذ بعضهم الجثتين إلى خارج الحجز، بينما ساد الهرج والمرج.

وأمام البوابة، رأى الأهالي جري العساكر، وسمعوا أصوات الصياح والسباب بالداخل، فتضخم قلقهم. أخذوا يسألون العساكر والأمناء عما يحدث، والعساكر ينهرونهم ويرفعون سلاحهم يهددونهم ليبتعدوا عن بوابة القسم. كان الأمر في الحقيقة لا يستحق كل هذا الهرج. لم يكن يستدعي أكثر مما فعل المحامي، إذ أخرج من محفظته عشرين

جنيهًا، ودسها في يد أحد العساكر، الذي همس له بأن هناك شابين ماتا في الحجز.

وسط كل هذه الأحداث، اتصل شخص ما بالمأمور، يخبره بما يدور، فكان أن وصل في هذه اللحظة بعينها، بينما المحامي يخبر الأهالي ما سمعه. رآه الناس وقد ثارت حفيظتهم، فهتفوا مطالبين برؤية أولادهم، جروا عليه يصرخون:

- ولادنا فين يا سعادة المأمور! عملتم فيهم ايه!

أمر المأمور العساكر أن يبعدوا الأهالي عنه، بينما جرى مسرعًا للداخل، وطلب من الموجودين أن يحكوا له ما حدث، فتسارعوا يخبرونه بما سمعوه من الأهالي والأمناء والمحتجزين والعساكر. جز على أسنانه، وهمس لنفسه:

- ايه المصيبة السودا اللي وقعت على راسنا دي..

لكنه تماسك وأصدر بحزم أوامره لمن أمامه:

- الرائد يوسف يفضل في مكتبه مايخرجش منه

لحد ما نشوف هنعمل ايه، والأهالي اللي بره مشوهم بأي طريقة، قولوا لهم قرايب الدرجة الأولى بس اللي يفضلوا، واللي هيقعد غير كده هيشرف في الحجز بتهمة الشغب.

رفع سماعة مكتبه، ليتصل برقم مديرية الأمن وهو يهمس لنفسه:

- جيب العواقب سليمة يا رب.

* * *

في أحد الحواري الضيقة، وقف فؤاد الشيخ، أو «أوفة» كما يناديه من يعرفونه ورفقاء المجال، ينفخ في يديه، ليقيهما شر برد الليل، منتظرًا أمام الباب الصغير لأحد البنايات المتهالكة. كان أوفة شابًا في منتصف ثلاثيناته، أسمر ذا شعرٍ مفلفل قصير، ولحية «سكسوكة» قصيرة. أخيرًا خرج له من الباب شاب ضخم الجسد، حتى أنه بالكاد استطاع عبور الباب الضيق. سأله:

- خير يا أوفة عايز ايه الساعة دي؟

- تامر يا صبحي.. ماشفتوش؟

- قلت لك ماشتفوش يا أوفة قبل كده.. بقاله اسبوعين مختفي، سمعت انه سافر إيطاليا تاني.

- سافر إزاي يا صبحي؟! يعني إيه سافر؟!

- هو عنده مطعم هناك، حاجة كده مش عارف.. أيوة يعني عايز ايه..

رد عليه أوفة كأنه لم يسمع:

- يعني ايه يسافر! يعني اتضحك عليا! يعني رحت في داهية!

فتح صبحي فمه ليسأله، ثم أدرك أنه غير مهتم بمصير أوفة، فقال له «سلام»، وعاد للبناية الضيقة مرة أخرى، ووقف أوفة مكانه لا يعرف ماذا يفعل الآن. تقرفص على أرض الحارة الرملية، يتذكر ما حدث له، بداية من مسيرته الفاشلة كهجام على الشقق، التي يمكن اختصارها في تلفاز واحد مسروق، باعه برخص التراب لخوفه من أن يتم

الإمساك به، ثم النصيحة الفاشلة التي سمعها من رفاق قعدة المزاج، الذين أخبروه:

- يا أوفة الحشيش هو الشغل كله..

- بس المجال ده بتاع الحيتان، وعايز فلوس كتير..

- ما هو حيتان بتساعد السمك الصغير اللي زينا برضه..

حكى له محمود فتاحة عن أولاد مدكور، العصابة الكبيرة المتخصصة في الحشيش وفرودة الخرطوش، وأخبره كيف سهلوا له الدخول لعالم الحشيش..

- بص يا سيدي.. أول مرة بضاعة هم اللي بيدوك، تبيع وتاخد ومكسب وتديهم فلوسهم، بيسهلوا الدنيا خالص.. لازم تثبت نفسك بس، ودي بضاعة مضمونة، ومفهاش خطر، كله بيبيع، وكله بيشرب..

كان تامر حاضرًا هذه الجلسة. وضع يده على فخذ أوفة وقال له:

- بص يا زميلي.. انت صاحبي وحبيبي وأنا ماتأخرش عليك.. لو دخلت في الحوار ده أنا أقدر أخلص لك البضاعة دي وبباكو بس عشان انت كفاءة..

سبحت أفكار أوفة بين أبخرة الحشيش، وقرر أن عليه ينتقل من مهنته غير الشريفة الفاشلة، إلى المهنة غير الشريفة التي ستجعله يلعب بالزهر.

وعلى إحدى قهاوي حي الدرب الأحمر، جلس أوفة مع شابين لم يرهما من قبل، ولم يعرف اسميهما، ومعه محمود فتاحة، الذي أدار الحوار.. سيحصل أوفة على بضاعة بقيمة 50 باكو، يبيعها بالسعر الذي يقدر عليه، ثم يرد لهم هذه الخمسين فقط. وافق أوفة فورًا، وشكر فتاحة كثيرًا على مساعدته، الذي رد عليه:

- يا صاحبي الرجالة لبعضها.. لما تستلم البضاعة بس خلينا نحتفل شوية بأول مرة ليك كرجل أعمال قد الدنيا.

وضحك كلاهما.. لكن لو عرف أوفة ما سيجري بعدها، لكان بكى وما ضحك.

استلم أوفة البضاعة، واحتفل مع الشلة بجزء صغير منها، تبعه جزء فالآخر، وبدأ يكسب احترامهم. صديقهم التاجر، الذي يعطيهم الكيف ببذخ بدون أجر، وقبل أن يدرك أوفة ما يحدث، كان نصف البضاعة قد نفذ.

لم يدري أوفة ماذا يفعل. ثم تذكر عرض تامر، فأسرع له، وحكى له ما حدث، وقال له في يأس:

- هعمل ايه؟ هرجع الفلوس ليهم ازاي دلوقتي؟ هيموتوني!

فكر تامر قليلًا وقال له:

- بص.. أنا أقدر أبيع لك البضاعة دي بضعف تمنها، السوق عطشان اليومين دول وهتمشي.. بس لازم تديهاني كلها مرة واحدة، وأول ما أبيعها هديك فلوس ترجعها لأولاد مدكور، وكمان ممكن يكون فيه مكسب.. ولا يهمك يا صاحبي

وافق أوفة على الفور، وأعطى باقي البضاعة لتامر. لكن تامر اختفى بعدها، ولم يظهر له أثر مرة أخرى. ربما سافر فعلًا لإيطاليا، فهو قد عاش هناك بالفعل بضع سنين، حيث سافر في مراهقته كمهاجر غير شرعي.. هل فعلها تامر؟ هل حقا غدر به أحد أكثر من وثق بهم في جلسات الكيف؟

قام أوفة من مكانه أخيرًا، وسار على غير هدى، لا يدري إلى أين يذهب. ظل يسير حتى انتصف الليل وأدركه التعب، فعاد إلى بيته، حيث كان عبدالله ابنه يتيم الأم ينتظره جالسًا مع جدته والدة أوفة، الحاجة وردة. ما إن دخل حتى صاح فيه أوفة:

- ايه اللي مصحيك يا زفت لحد دلوقتي؟ خش نام وراك مدرسة!

فهتف الولد «أف»، ودخل مسرعًا إلى غرفة النوم التي يتشاركها مع جدته، التي سألت أوفة:

- كنت فين لحد الساعة دي؟

لم يرد عليها أوفة، ولكن ملامح الهم على وجهه أجابتها. قالت له:

- انت عارف ان همك ده مش هيروح غير لما ترجع لسكة ربنا.

أجاب عليها أوفة:

- أوعدك يا حاجة لو عدت المرة دي مش هجرب سكة الحرام تاني..

أمه تتحدث عن المستحيل.. لا تفهم أن الدين الكبير لأولاد مدكور يعني أن ينتهي بك المطاف ناقصًا لأحد الأطرف، ذراع، أو ساق.. أو رأس! لو كان يعرف أن هذه النهاية، لسمع كلامها كل مرة أخبرته أن يبتعد عن عيش الحرام، وأن هذا الطريق سينتهي به في السجن لا في رحاب رضا زوج خالته حمدي أذية، الذي أحب أوفة ابنته أحلام، وتمنى كثيرًا أن يتزوجها، وهو ما لم يكن سيحدث طالما بقى هو في حالة الفقر هذه. يا ليته انتهى بالسجن، لا بما هو فيه الآن!

قامت أمه من مكانها أمام التلفاز القديم، فجلس أوفة فيه يتابع ما كانت تتابع هي.. كان على التلفاز معروضًا مسلسل أحلام الفتى الطائر. أخذ أوفة يتفرج عليه ويضحك. عادل إمام يحاول الهروب، فيختبئ في مستشفى الأمراض العقلية.. الأحمق.. ما فرق المستشفى عن السجن..

فيم فرق المستشفى عن السجن؟! فجأة، بدأت الفكرة تتبلور في رأس أوفة.. حان وقت الذهاب إلى السجن، حيث لن يصل إليه أولاد مدكور، ولن يعتبروه هاربًا منهم!

* * *

أمضى أوفة الليلة مستقيظًا يقلب الخطة في رأسه. وبرغم ذلك، كان كامل النشاط عندما نزل من البيت صباح اليوم التالي، متوجهًا لعم عفيفي لحلاق.. سار في قلب الحارة، واثقًا كإنسان يحمل ضميرًا بريئًا لطفل رضيع يبتسم للجميع ويلقي التحيات في كل حدب وصوب. وفجأة، أوقفه أحدهم عند الناصية، وفي لمحة خاطفة قال له:

- أولاد مدكور عايزين فلوسهم.. النهاردة على القهوة الساعة خمسة العصر.

واختفى، قبل أن يلمح وجهه حتى. تسمر أوفة مكانه، وعاد الغم يغمره. لكنه هزه عن نفسه وهمس لها:

- هنتصرف.. مش هيحصل حاجة..

أكمل طريقة للحلاق ودخل صائحًا:

- السلام عليكم يا عم عفيفي.

حياه عفيفي بوجه مشمئز وغمغمة غير مسموعة.

كان عفيفي يكره أوفة منذ صغره، قبل أن يصبح لصًا حتى؛ لكنه يدعي الآن أن هذا سبب كراهيته له. لطالما وبخه وصرخ في وجهه وسبه كلما جاء للحلاقة عنده منذ الصغر. لم يعلم أوفة لذلك سببًا، لكنه بادله الكره بدون تردد.

جلس أوفة منتظرًا دوره يشاهد التلفاز الذي يتحدث عن القبض على ضابط في أحد الأقسام القريبة، لقتله متهمين بالتعذيب. اقشعر جسد أوفة، وعاد يفكر إذا كان ما سيفعله هو الصواب حقًا.. حتى ناداه عم عفيفي:

- يلا اخلص يا أوفة سرحان في ايه تعالى اقعد.

جلس أوفة على الكرسي أمامه، وترك عفيفي يحلق له. خمسة دقائق مرت وهو يقلب الأمر في رأسه.. السجن أم أولاد مدكور؟ الموت تعذيبًا أم الموت بقطع الرأس؟ على الأرجح قطع رأسه سيكون أقل ألمًا، لكن الموت تعذيبًا حالة نادرة لا يوجد ما يقول إنها ستحدث له هو. استقر على قراره أخيرًا، فصاح فجأة:

- ايه اللي بتهببه ده يا عم عفيفي!

ترجع عفيفي خطوتين للوراء متعجبًا مما يقوله وقال:

- نعم؟ انت بتقول ايه يا زفت؟ ما تحترم نفسك.

قال أوفة من على كرسيه وصاح فيه:

- أحترم نفسي ايه يا راجل يا خرفان.. ايه اللي عملته في راسي ده.

رفع عفيفي يده وصاح مهددًا:

- انت مااتربتش ياض يا أوفة.. أنا بقى هربيك!

عاجله أوفة بضربة على رأسه صائحًا:

- ده أنا اللي هعرّفك ان الله حق.

قام الجميع، وبدأوا يمنعونهم عن بعضهم البعض. لكن أوفة أمسك بموس الحلاقة من أمام المرآة، وغرزه في خد عفيفي، محدثًا جرحًا عميقًا، يمكن

بدون شك تصنيفه عاهة مستديمة. وساد الهرج والمرج، وعفيفي يصيح مذعورًا:

- إلحقوني يا ناس.. هموت!

ووقف أوفة وقد كبله الحاضرون وأخذوا منه الموس، هادئا في منتصف المحل، منتظرًا حضور الشرطة. كان يشعر بارتياح يسري في نفسه وهو ينظر إلى دم عفيفي على يده. لقد تأخر تحقيقه لهذه الأمنية كثيرًا، لكن كل تأخيرة وفيها خيرة، وها هو وقتها قد جاء ليكون له راحتين، أن أسال دم عفيفي، وفي نفس الوقت هرب من مأزق رد أموال أولاد مدكور.

* * *

لم يكن السجن نجاة وراحة كما تخيل أوفة. لقد أمضى أوفة ليلة سوداء في حجز القسم، حيث أخبره المساجين أنه - في نفس هذه الحجرة - منذ يومٍ واحد فقط، مات شابان لا تهمة لهما. خاف على نفسه كثيرًا. اكتشف أنه جبان جدًا أمام

الموت. دعا الله أن يمر الأمر على خير، وأشهد الله على ما في قلبه من رغبة في الحياة.

صباح اليوم التالي كان موعد ترحيله للنيابة. أتى أحد الأمناء، وأخذه إلى البوكس. بمجرد أن خرج إلى شمس الطريق، جرى عليه أهله، والدته وزوج خالته حمدي أذية، وابنته أحلام التي دق قلب أوفة لرؤيتها، وشعر بالحسرة لأنها رأته في هذا المشهد.

- أنا تعبتكم معايا يا جدعان والله.. أنا آسف..

قالت أمه الحاجة وردة وهي تبكي:

- ليه يا أوفة تعمل كده في نفسك وفينا؟.. وابنك يا أوفة هتعيشه من غير أب ولا أم كده؟

- أنا آسف يا أمي.. بس كان لازم أعمل كده..

همس لهم بصوتٍ خافت:

- حياتي بره السجن في خطر..

قال حمدي أذية لأم أوفة ولابنته:

- سيبونا يا ست انتي وهي، استنوني عند الرصيف اللي هناك ده. يللا اتحركي منك لها، خليني ألحق أفهم منه حاجة.

ابتعدت المرأتان وما تبكيان، ودس خاله في يد العسكري عشرة جنيهات، ليترك له بضع دقائق يتكلم فيها مع ابن أخته.

- ده عشان حوار أولاد مدكور مش كده؟

- عرفت منين؟!

- ما هو جوز خالتك مش عبيط يا ياض ولا نايم على ودانه.

- مش انت اللي قلت لي أمشي في السكة دي وأكبر لو عايز أنجح..

عصر حمدي أذية أذن أوفة كطفل صغير وقال:

- ما هو يا عبيط محدش بيكبر بالغباوة برضه.

شد أوفة يده عن أذنه بعنف، وقال له:

- والعمل؟

- العمل انك أغبى من الحمار. انت فاكر ان أولاد مدكور مالهمش ناس في السجن؟

صفعت الجملة عقل أوفة. أحس أنه ألقى بنفسه في المصيدة، وزاد مصيبته بقضية عاهة مستديمة. لماذا يعرف خاله تلك الأشياء ويكدره بها، أما كان أولى به أن يصمت ويتركه لبعض الراحة؟!

- وبعدين؟

- لو حسوا انك عملت كده عشان تهرب منهم هيجيبوك، وهيخلوك عبرة.. لازم تهرب من السجن..

في هذه اللحظة، كان الأمين قد أقبل، ونهر العساكر المتلكئين بالمتهمين المرحَّلين إلى النيابة، وهو في نفس الوقت يعدهم وينظر إلى هيئة

أهاليهم، ليقدِّر كم دسُّوا في أيدي عساكره. همس حمدي بسرعة لأوفة:

- نكمل كلام في النيابة..

أخذ الأمين أوفة على البوكس، وخلال ثلث ساعة كانوا قد وصلوا للنيابة. تعجب أوفة من أعداد الناس الواقفة بالخارج، بينما سحبه الأمين لداخل المبنى بالكلبش الذي ربط يديهما ببعض. صعد معه الكثير من السلالم، حتى لم يعد يتذكر لأي دورٍ في المبنى قد وصل. خلع الأمين الكلبش من يده، واستبدلها بسور السلم، ودخل الحمام.

كان أوفة واقفًا وحده، مكبلًا إلى السور ككلب. أحس في هذه اللحظة كم هم مهان، لا حول له ولا قوة. مر أمامه اثنان مكبلان مع أمينين آخرين، وبينما اقترب أحدهم بجانبه، همس له:

- ايه يا حلو فاكر نفسك هتخلع ولا ايه؟

التفت نحوه أوفة مصدومًا. أعرف الرجل أنه يفكر في الهرب، أم أن هذا ما حدثه عنه خاله.. «انت

فاكر ان أولاد مدكور مالهمش ناس في السجن؟»!
أخذ يتابع الرجل بينما يبتعد، ويتلفت إليه مبتسمًا ابتسامة صفراء أكدت له ظنه.. إنه مرسال أولاد مدكور بلا شك.

عاد الأمين، وسحبه مرة أخرى لينتظرا أمام الغرفة التي سيعرض فيها على النيابة، رأى زوج خالته قادمًا، فتعجب أي علاقات تلك تمكنه من دخول كل مكان هكذا، بينما لم تسعفه أن يجد عملا له حين لجأ إليه. كاد يبصق في وجهه، لولا أنه غارق في احتياجه لنجدته. شعر كأنه يضع رأسه تحت يد عفيفي مجددًا وقد صار بينهما ثأر. كلهم واحد.. عفيفي وتامر وزوج خالته المتبدية الشماتة في عينيه. همس أوفة لزوج خالته مذعورًا:

- طلع معاك حق! واحد منهم قابلني فعلًا!

- قلت لك يا موكوس! لازم تهرب..

و أكمل بصوت أخفت:

- أنا أعرف أدبر لك خلعان من البلد دي خلال

شهرين تلاتة، بس لازم تختفي فيهم ماحدش يعتر لك على أثر!

- وأنا ههرب من الحجز ازاي؟؟

- معرفش اتصرف..

قاطع كلامهما عودة الأمين، ليأخذه لجلسة عرضه على النيابة. دخل للغرفة، بينما وقفت عائلته تنتظره بالخارج، وأمه تدعو:

- جيب العواقب سليمة يا رب!

تواسيها ابنة أختها.. تواسيها وتفكر كثيرًا.. كثيرًا جدًا.

* * *

في نفس ذلك اليوم، وفي نفس المبنى.. كانت تقام جلسة عرض يوسف على النيابة، والذي تحولت قضيته فجأة إلى قضية رأي عام، على يد هالة الصحفية الشابة أخت إبراهيم الضحية. لقد لاكت القضية الألسنة دون ملل، واستغلتها كل الصحف

الكبيرة لتزيد مبيعاتها اليومية، وتعاملت مع كل خبر بخبث يجعل التشوق للمزيد وقودًا لاستمرار الضجة.

حاوط العساكر يوسف حين نزوله من عربة الترحيلات، متجهًا نحو مبنى النيابة، مشكلين حاجزًا بينه وبين الأهالي الغاضبين، والصحافة، ونشطاء حقوق الانسان، الذي تجمعوا مطالبين بالقصاص منه لأرواح الشهيدين البريئين، الذي جمع اختلافهما في الدين الناس على قضيتهما بدون جدال، وأعجز أولي الأمر عن تلفيق حديث الإرهاب الديني للقضية.

كان كل هذا يمر بيوسف ككابوس لا يُصدق. صعوده السلالم، ودخوله للجلسة والقاء التهم عليه.. كل هذه الصور ضبابية في ذهنه، لا يتذكر منها بوضوح سوى تأكيده على براءته، ولا شيء آخر. انتهت الجلسة سريعًا أو ببطء لا يدري، ولم يسمع حتى ما قاله محاميه الذي وكله أهله للدفاع عنه. انتهت الجلسة، وخرج من الغرفة ليجد

الجميع في انتظاره، والده عبدالحميد الألفي، ووالدته الأستاذة راضية، الذين بكيا لمشهده مكبلًا كالمجرمين، ورأى معهم كنزي خطيبته تبكي، فدق قلبه بعنف. كانت علاقة يوسف بكنزي علاقة شائكة متوترة، وكان توترها بداخله على أشده في هذه اللحظة. كان أحيانًا يشعر بأنه يحبها بجنون، وأحيانًا يشعر أن الجنون فاق الحب، فتصير علاقتهما مدعاة للخوف لا للاطمئنان. كان صراع نفسه بين إحساسه بألمها لأجله مع كرهه لأن تراه على هذا الحال حادًا كنصل بشلة مجرم محترف قطَّع روحه بسرعة البرق. رفع لهم يده غير المقيدة محييًا، لكن جذبه الضابط المصاحب له، ولم يسمح له بأن يودعهم، وأسرع به يحيطهما العسكر، ليخرجوا من المبنى من باب خلفي صغير.

كان الخروج من الباب الخلفي حيلة فاشلة، لا تنطلي على صحفي مبتدئ، ولا حتى على أهالي الضحايا، فما إن خرج يوسف من المبنى محاطًا بالعساكر، حتى بدأ الشغب وهتاف الأهالي مطالبين بالقصاص الفوري من القاتل الملعون، وهم

يحاولون الوصول ليوسف واختراق حاجز الأمن المحيط به. وجد يوسف نفسه يتم دفعه من مكان للآخر، بين جيش من العساكر المرتبكة التي لا تدري كيف تتعامل مع كل هذه الحشود، وصوت سيارات مكافحة الشغب يزعق، وفي وسط هذا كله يأمر أحد اللواءات المتواجدين في الساحة العساكر بوضع جميع المساجين في الحبس خانة حتى يهدأ الوضع، فيمسك أحدهم بيد يوسف ويضعه في كلبش واحد مع مسجون آخر، ويجري به عائدًا نحو مبنى النيابة. لكن الحشود لم تغفل عنه، كان الغضب يؤجج قلوبهم بالاجتراء، فجروا نحوه مهاجمين، حتى إن حوائط عساكر الأمن تفتت، ليجد يوسف نفسه محاطًا بفوضى من العساكر التي رفعت عصيِّها، وانهالت بها في غشم وغباء على الأهالي والصحفيين وأشخاص تصادف مرورهم، لا يدرون حتى ماذا يحدث. وفي وسط كل هذا، وبدلًا من الهرب من الجموع، وجد نفسه كمغيَّبٍ، يسحبه المسجون المربوط معه نحوهم، ليغيبا وسط الزحام، ووسط الضرب والاشتباك

الذي يحدث، لا يكاد أحد يلاحظهما، حتى فوجئ بنفسه وقد أفاق وهو يجري ويجري مع رفيقه، بعيدين عن النيابة والأهالي والقضية والحياة التي عرفها يوسف طوال سنواته الماضية. كان مأخوذًا تمامًا لا يفهم كيف يحث ذلك، وينظر إلى وجه رفيقه في الكلبش، الذي بدا كأنه لا يدري بوجود رجل معه في نفس القيد، وعقله يكاد يستسلم لإغماءة تنقذه من كل هذا الضغط العنيف للأحداث.

فجأة وجد يوسف نفسه في وسط الشوارع، يجره مسجون لا يعرف عنه شيئا، يربطهما قيد عجيب.. الآن يشعر كم هو عجيب. يجري به أوفة، لا يلق بالًا لحقيقة أنه ضابط.. إنه الآن متهم بالإجرام مثله تمامًا، وواضح من استسلامه له كم هي ضائعة روحه، فلا خوف منه. توقف فجأة أمام رجل عجوز، وصرخ فيه:

- كوفيتك!

حاول الرجل الابتعاد عنهما، فسحبها أوفة عنوة،

فحكت في رقبة العجوز، فتحشرجت صيحته. لفها أوفة حول الكلبش بين يديهما ليخفيه، ثم ضحك من الشيخ الذي سرقها منه وهو يعرج جاريًا يهرب بعيدًا. لكأنما استفز منظر العجوز وهو يجري عقل يوسف، فأفاق فجأة وصاح:

- انت بتعمل ايه!

- هكون بعمل ايه! لو اتشافنا كده هنتمسك تاني. تعرف انت يعني ايه ان الناس اللي تمسكك مش البوليس؟.. اللي بتعملوه في الناس أرحم من اللي الناس بتعمله في بعض، أجارك الله لو العجل وقع وكترت سكاكينه!

- انت هربان من السجن!

ضحك أوفة وقال له:

- وانت جاي معايا زيارة؟

ثم سأله:

- انت اسمك ايه؟

- يوسف.

- عاشت الأسامي يا يوسف. أنا فؤاد الشيخ، بس صحابي بينادوني أوفة.

ثم أشار أوفة بيده الحرة إلى تاكسي مار، وسأل يوسف:

- معاك فلوس تحاسب التاكس؟

ركب كليهما التاكسي، وسأله يوسف قبل السائق حتى:

- على فين؟

فهمس له:

- ماتخافش.. هنروح مكنة كده لحد ما الدنيا تهدا والعيون تنام..

ثم قال للسائق:

- آخر الشارع ياسطى.

* * *

نزل كليهما عند نهاية الشارع. أخرج يوسف من جيبه خمسة جنيهات وأعطاها لأوفة، الذي أعطاها بدوره للسائق. جرَّه أوفة نحو زاوية..

- تعالى، هندخل الدكان ده.

سأل أوفة صاحب الدكان لو أن عنده هاتفًا، فأخرجه له، فرفع أوفة السماعة، ووضعها جانبًا، ثم ضغط الرقم بنفس اليد، ثم عاد لحمل السماعة على أذنه. كان حريصًا ألا يظهر الكلبش في يديهما.

- تقلة! حبيبي! فينك يا جدع ليك وحشة! بقول لك ياسطى أنا محتاجك في خدمة مهمة جدًا جدًا..

ثم أكمل هامسًا:

- محتاج مكنة يومين كده لحد الدنيا ما تهدا عليا، عشان فيه ناس آترينِّي وعايزين راسي.. أنا قلت انت مستحيل تتأخر عليا، كلك رجولة يا حِب.. وبرضه عايز أفك ايدي.. آه بالظبط.. خلاص ماشي،

فين؟ خلاص اديني ساعة زمن..

خرج كليهما من الكشك، بعد أن أعطى يوسف الرجل بعض الفكة، ثم سأله أوفة:

- معاك نركب تاني ولا ناخدها مشي؟ طويلة السكة

رد عليه يوسف:

- خلينا نمشي..

احتاج يوسف لبعض الوقت كي يفكر، لذا ظل يمشي يجره أوفة، بدون أن ينطق كلمة، وهم ما لم يعجب أوفة الذي سأله:

- ماقلتش يا صاحبي انت كنت داخل في تهمة ايه؟

- قتل.

أجفل أوفة، والتفت نحوه مصدومًا، ثم تظاهر بالمحافظة على رباط جأشه وسأله:

- قتلت مين؟

- ماقتلتش حد

- يا صاحبي أنا مش النيابة مش لازم تكدب.

لم يرد يوسف عليه.. ظلا في طريقهما يمشيان، حتى وصلا إلى مقابر باب الوزير، وكانت الشمس قد أوشكت على الغروب. سحب أوفة يوسف للداخل وقال له:

- واحد معرفة اسمه نجيب تقلة هييجي يفك لنا الكلبش ده، وساعتها هنبقى أحرار، ولو عايز كل واحد يمشي في سكته، ولو عايز تيجي معايا نساعد بعض في ليلتنا السودا دي تنور.

جلسا شاردين، متجاورين - اضطرارا وليس اختيارا، بحكم الكلبش- في أحد حجرات المقابر، التي كان أوفة يعرف أنها مفتوحة، حتى حل عليهما الظلام، ولو يعد ينير لهما المكان سوى ضوء القمر المتسلل من السقف. وأخيرا، دخل عليهم شبح أسود، ألقى السلام، فقفز كلاهما فزعًا. ضحك الدخيل قائلا:

- ايه يا أوفة.. اثبت كده أنا نجيب يا عم.

- يا عم نجيب حد يخش على حد الدخلة دي في المدافن.

ضحك نجيب وقال له:

- أمال عايزني أخبط الأول على الميتين؟

ثم أخرج نجيب تقلة أداة كبيرة لقص الحديد من حقيبته وقال:

- ناولني وريني..

أعطاه يوسف وأوفة يديهما، وفي دقيقة، أصبح كلاهما مرة أخرى كيانًا منفصلًا حرًا. سأله نجيب تقلة:

- ها هتعمل ايه دلوقتي؟

لم يلحق أوفة أن يرد، لارتفاع صوت امرأة تصرخ فجأة في أعماق المقابر. قال يوسف:

- ايه ده؟ سمعتم؟

أجاب نجيب:

- آه.. الحتة دي لبش وبيحصل فيها حاجات مش تمام.. خلونا نمشي أحسن..

سارع يوسف بالقول:

- دي واحدة ست بتصرخ.. هو ايه اللي نمشي؟

سأله أوفة:

- أمال عايز تعمل ايه يا زميلي؟ احنا مانعرفش اللي بيحصل؟

- نروح ونشوف ولا هو مفيش نخوة ولا ايه!

قال نجيب:

- أنا ما معييش غير البتاع ده وشاكوش ومفتاح انجليزي، لو فيه عيال لبش معاهم فرد ولا سنجة هنروح فيها، واحنا أساسًا ملناش دخل في الموضوع.

قال له يوسف:

- ناولني الشاكوش وامشوا انتم؟

- لا يا عم نمشي ايه دي عدة الشغل.. احنا هنستناك هنا لو ماحصلكش حاجة تيجي ترجعه.. ولا أقولك.. احنا هنيجي نبص من بعيد..

صاح فيه يوسف:

- طب انجز مافيش وقت!

كان صوت المرأة يتعالى، مما يشير إلى أنها تتحرك وتقترب، وبدأوا يسمعون صياحها:

- الحقوني! حد يلحقني! يا ناس!!

أسرع يوسف خارجًا من غرفة القبر جاريًا، ولكن في الظلام لم يدر أين يتوجه، فقرر أن عليه أن يصعد للأعلى لعله يرى شيئًا. وبالفعل، بدأ في تسلق حائط أحد القبور، وفي هذه الأثناء كان نجيب يقول لأوفة:

- أنا مش مرتاح للي بيحصل ده.. أنا همشي..

رد عليه أوفة:

- لأ أنا مش همشي.. الجدع ده عنده حق، دي مش نخوة..

- خلاص يا عم خليك انت معاه، وهات لي العدة بعدين، والا تبقى مديون لي بتمنها.

- طب اخلع انت..

جرى نجيب مبتعدًا، بينما أسرع أوفة للحاق بيوسف. كانت الفتاة الصارخة قد ظهرت من بعيد، ووراءها يجري أربعة رجال، تبدو من طريقة حركتهم أنهم تحت تأثير المخدرات. تعثرت الفتاة، فلحقوا بها وهموا بتمزيق ملابسها، بينما صاحت:

- يا إبراهيم حرام عليك.. ده أنا بحبك.. ازاي تسيبهم يعملوا كده.

- حب ايه يا معفنة.. يا بتاعة المناديل.

لطمها هذا الإبراهيم على وجهها، وتكالبوا عليها، بينما أخذت تصيح:

- حرام عليكم بنزل دم كفاية حرام..

هنا، لم ينتظر يوسف أكتر من هذا، واندفع نحوهم زائرًا كالليث، ففزعوا وتوقفوا عما يفعلون، بينما انهال على رأس أولهم بالمطرقة في يده، فأسقطه مغشيًا عليه. أخرج أحدهم مطواة كبيرة من جيبه وفتحها، وهم بالهجوم على يوسف، الذي قفز للخلف، لكن مهاجمه انحنى ونال من ساقه بالمطواة. أوفة أسرع يجري عليه بحجر كبير حمله من الأرض، ورماه على قدم المهاجم، فهشم أصابعها، وأسقطه أرضًا. الاثنان الباقيان التفت أحدهما نحو يوسف، ورأى في لحظة انقشعت فيها السحب عن القمر وجهه، فصاح:

- يا نهار اسود! ده مباحث يالا.. اجري!

هم بالجري بعيدًا، بينما حاول الأخير جر صاحبه ذي القدم المكسورة مبتعدين، بينما انطلق يوسف

يجري وراءهم، لولا أن ناداه أوفة:

- يوسف! البت دي هتموت منا وللا ايه! دي مش بتنطق!

توقف يوسف وعاد مسرعًا نحوها. ووضع يده على عنقها، ليشعر بنبضها ما زال يدق، فحملها وسأله:

- فيه مستشفى قريبة؟

- أه مستشفى الخليفة مش بعيدة..

- اجري قدامي وريني الطريق!

* * *

دخل يوسف بالفتاة جاريًا وهو يصيح:

- حد يندە دكتور دلوقتي حالًا!

جرت ممرضتان إليه، وأخذتا منه الفتاة المغشي عليها، ووضعتاها على نقالة، ومضت إحداهما تجهزها، بينما تحاول الأخرى الاتصال بطبيب الطوارئ. بينما أخرج يوسف كل ما كان في جيبه

من مال ووضعه في جيب الفتاة وقال:

- أنا هخرج أقطع لها تذكرة وجاي حالًا.. خدوا بالكم منها!

وسحب أوفة معه، وخرجا مسرعين من المستشفى، قبل أن يلاحظ أحد.

* * *

في أثناء ذلك، في أحد الغرف المغلقة في مديرية الأمن. كان اللواء إحسان مدير الأمن يستدعي العقيد شريف الزيني، الذي دخل المكتب وأدى التحية، قبل أن يأمره اللواء إحسان:

- اتفضل اقعد يا حضرة العقيد.

جلس شريف الزيني أمام مكتب مدير الأمن وسأل:

- خير سعادتك؟

- الكلام اللي هتسمعه ده في منتهى السرية والخطورة، ومينفعش يطلع. انت أكيد سمعت عن

قضـــية الضـابط يوسـف المتـهم بقتـل متـهمين بالتعذيب؟

رد شريف:

- أكيد يافندم. ده الأخبار وكل البرامج بتتكلم عنها من امبارح.

- بـالظبط! يعنـي عـارف قـد ايـه قضـية حسـاسة ومـهمة! دلوقتـي حصـل فيـها تطـور شـنيع ولازم نلحقه.

- خير يافندم؟

- النهارده بعد جلسة النيابة حصلت أعمال شغب من الأهالي وهاجموا قوات التأمين، والنتيجة ان فيـه اتنين متـهمين اختفـوا. الكـاميرات صـورت الاتنـين وهـم بيسـتغلوا الـهرج اللـي حصـل وبيستخبوا وسط الحشد اللي كان هناك وبيختفوا بعـدها. ده تقصـير شـديد جـدا، والمسـؤول عنـه هيتحاسب، بس نخلص من المصيبة دي الأول.

- ومـــين المتـــهمين دول يافنـــدم وايـــه مـــدى خطورتهم؟

- الأول شخصية تافهة اسمه فؤاد الشيخ، متهم بالاعتداء بالضرب وإحداث عاهة مستديمة في حمار تافه زيه. إنما التاني اللي كان متكلبش معاه واللي هيودينا كلنا في داهية، هو الرائد يوسف!

صاح شريف منفعلًا ومذهولًا:

- مين؟ رائد وهرب؟

- الموضوع مفاجئ جدًا، خصوصًا ان سجله كان مشرف جدًا، ما عدا حادثة واحدة بسيطة أثناء خدمته في القوات الخاصة، هي اللي أدت لنقله للمباحث.. ودلوقتي الاتنين اختفوا وقوات البحث مالقتش أثر ليهم في محيط النيابة كلها.

- والعمل يافندم؟

- ده مهتمك انت بقى يا حضرة العقيد. انت مكلف بانك تلاقيه بأي شكل وتكلفة، ومهمتك دي لازم

تُنفذ بمنتهى السرية. مفهوم؟

- مفهوم يافندم.

- يلا شوف شغلك وربنا معاك. اتفضل.

قام العقيد شريف من على الكرسي، وأدى التحية العسكرية، وانصرف وهو يفكر في هذه القضية المهمة والصعبة، التي أُلقيت على عاتقه، وحار يفكر كيف ستكون خطوته التالية.

* * *

جلست الإعلامية نهى نورالدين في مكتبها، تدور على كرسيها، وتطالع عناوين مقالات الغد. كانت نهى إعلامية مرموقة في إحدى الجرائد الشهيرة. ليس هذا كافيًا ليتم تكليفها بمتابعة قضية الساعة: يوسف سفاح الشرطة. بالتأكيد هناك ما يجعلها أهلًا للمهمة.

عنوانين المقالات التي كتبها الصحفيون الشباب العاملون تحت يدها تناثرت أمامها: «تاريخ سفاح الشرطة: من العمليات الخاصة للتعامل مع المواطنين»، «عنف الشرطة إلى أين؟»، «التعذيب: فردية أم منهجية؟».. كلها مقالات تلهب المشاعر وتشد الأوتار الحساسة. كلها - كتقييم صحفي أمين- مقالات تستحق النشر. لكن المساحة محدودة، وعليها أن تختار ما سينشر بجانب مقالها هي.. حوارها مع أهالي الضحايا.

هناك مقال واحد تعلم أنها لابد ستنشره. إنه مقال هالة، أخت أحد الضحايا، التي كتبت عن ذكرياتها مع أخيها الشاب المسكين، الذي بترت حياته في

ربيع سنواتها على يد الضابط المتعطش للدماء.. المقال مؤثر، سال دمعها وهي تقرؤه، حتى إنها اتصلت بالصحفية الشابة لتخبرها أن قلمها موهوب، وأنها قادرة على أن تجعله سلاحًا يأتيها بحق أخيها الشهيد. الأهم، أن منع مقال الأخت قد يثير مشاكل أضخم من نشره.

نهى، بدأت مشوارها كصحفية في قسم الحوادث، وهو ما استغربه الكثيرون لكونها أنثى. لكنها أثبتت نفسها سريعًا، بسبب جرأتها دومًا على تتبع أي قصة مهما كانت بشاعتها وخطورتها. لكنها - بينما سارت في هذا الطريق - اكتسبت نظرة شديدة السواد إلى الحياة. اسود في نظرها المجتمع الذي ينتج المجرمين، واسود في نظرها الإنسان القادر على الإتيان بالجرائم بقلب غير نادم، واسودت كثيرًا في عينيها فئة ضباط الشرطة، حين تعددت في مسيرتها قضايا التعذيب الوحشية في الأقسام.

بينما تقلب في العناوين أمامها تفكر، رن هاتفها،

فردت شاردة في روتينية:

- مكتب الصحفية نهى نورالدين.. نعم؟ بتقول ايه؟ متأكد من الكلام ده؟ طب أنا جاية حالًا ما تعرَّفش أي حد!

* * *

أسرعت نهى نورالدين نحو مستشفى الخليفة، حيث أخبرها أحد الصحفيين الشباب المتمرنين معها أنه أثناء متابعته لموضوع مختلف، أكتشف أمرًا مهمًا بالصدفة في القضية التي تتابعها هي.

اندفعت إلى قسم الاستقبال، حيث كان جالسًا، فأسرعت نحوه، وهمست:

- فهمني.. اللي حصل بالضبط؟

حكى لها الصحفي الشاب:

- أنا كنت بتكلم مع بنت ضحية اغتصاب في المستشفى هنا. المستشفى بلغت البوليس عنها وأنا وصلني الخبر. وأنا بسألها ايه اللي حصل، حكت

انها كانت مع حبيبها وأقنعها يروحوا المقابر عشان هادية وبعيدة عن العيون وكده. ولما راحت، لقت صحابه مستنينها هناك.. المهم.. هي بتحكي إن آخر حاجة فكراها إن حد طلع فجأة أنقذها واشتبك معاهم، وبعدين هم صرخوا انه مباحث وجريوا منه.. أنا استغربت لأنها حكاية مش منطقية.. ظابط مباحث هيعمل ايه الساعة دي في المقابر؛ مش كده؟

أومأت نهى وهي تسمع بتركيز، ثم قالت:

- كمل..

- وبعدين افتكرت الشائعات بتاعة الصبح، ان الضابط المتهم في القضية بتاعتنا هرب وسط الاشتباكات اللي حصلت قدام المحكمة. قلبت الموضوع في دماغي، وكنت فاكر اني حدفت بعيد قوي.. بس لما وريتها صورته قالت لي ان برغم الضلمة ده الوش اللي فكراه فعلًا.. وش الرائد يوسف!

تسارعت نبضات قلبها وهي تسمع كلماته. هذا نبأ كبير.. هذه أخبار حصرية ستقذف بها وفريقها نحو قمة السلم المهني.. سألته:

- البنت دي لسه في المستشفى؟

- أيوة في العناية المركزة فوق..

- حلو.. أنا هطلع أقابلها أسمع منها الحكاية بنفسي برضه.. برافو بجد يا.. محمد مش كده؟

ابتسم مرتبكًا ومتحمسًا وصحح لها:

- محمود..

- برافو يا محمود.. انت وصلت لخبر صحفي من أهم ما يكون، وليك مكافأة كبيرة!

ثم تركته وانطلقت مسرعة صاعدة للعناية المركزة، لتقابل الضحية المسكينة، وهي تعيد ترتيب حساباتها..

* * *

جلست نهى بجانب الفتاة المنهكة على سريرها، حيث عُلقت لها المحاليل، وسألتها:

- إزيك؟ أنا اسمي نهى. صحفية وعايزة أتكلم معاكي شوية.. موافقة؟

هزت الفتاة رأسها في صمت.. سألتها:

- اسمك ايه؟

نظرت لها الفتاة وبدا أنها لم تشأ الرد، فطمأنتها نهى:

- متقلقيش.. اسمك سر مش هيتنشر أبدًا..

- اسمي مريم..

- احكي لي يا مريم اللي حصل..

- مش عايزة.. أنا حكيته خلاص..

صمتت نهى لحظة مفكرة ثم قالت:

- أنا آسفة لو ضايقتك.. أنا عايز بس أسألك عن اللي

أنقذك ده..

تنهدت الفتاة وقالت:

- زي ما قلت للشاب اللي شغال معاكي، كل اللي أعرفه انه مباحث، وان وشه زي الصورة اللي وراها ليا.. وانه ساب لي شوية فلوس في جيبي، لما فوقوني في المستشفى ادوهاني كانوا فاكرينها بتاعتي.. معرفش أي حاجة تانية..

أمسكت نهى بيدها وقالت:

- شكرًا يا مريم، وأنا متأسفة جدًا على اللي حصل لك..

ثم ناولتها الكارت الخاص بها وقالت:

- لو احتاجتي أي حاجة كلميني بدون تردد، مستعدة أساعدك بأي شكل..

لم ترد الفتاة عليها، وأغلقت عينيها، فيما بدا أنها محاولة منها لكتم دموعها. كانت نهى تقدر صعوبة ما مر بالفتاة، وخوفها من الفضائح، وبالتأكيد

خوفها أكثر من أهلها، فلم تلح عليها. قامت نهى من مكانها مغادرة، وعقلها في حيرة .. لقد تأكد لها الان هـرب هـذا الضـابط، والـداخلية تخفـي هـذا الخبر، وهذا خبر ثقيل وله تبعات أثقل لو تم نشره. لكن ما يلفتها الآن هو تصرف الرائد الهارب بهذا النبـــل مــع الفتــاة المســكينة، معــرضًا نفســه للانكشـاف!.. هـل يمكـن أن يبلغ التناقض البشري هــذا الحــد؟!.. تنـهدت حـائرة واسـتغرقت فـي شرودها، حتى إنها لم تنتبه لنداء محمود لها في طريقها للخروج من المستشفى. كان عليها أن تعود فــورًا لمكتبــها وتصــل لقـرار فـي كـل ذلـك، مـاذا ستكتب، وماذا ستنشر أو تحجب مؤقتا عن عدد الغد!

* * *

أما يوسف.. فبعد أن غادر المستشفى مع أوفة، لم يُضِع أي وقت. ذهبا إلى محلٍ آخر، حيث استخدم يوسـف التلـيفون هـذه المـرة، للاتصـال بصـديقه القديم أسامة، على رقم غير معروف له. كان أسامة

يعمل في إحدى شركات المحمول، ويملك بعض الأرقام السرية التي ائتمن عليها المقربين منه، وهكذا ضمن يوسف أن المكالمة لن تكون مراقبة.. دعا يوسف الله أن يكون ما زال متذكرًا للرقم، فمنذ سنين وهو يعتمد على قائمة الهاتف. سمع أخيرًا صوت صديقه العزيز على الناحية الأخرى:

- آلو..

- أيوة.. أسامة؟

- أيوة مين معايا؟

قال يوسف هامسًا:

- أنا يوسف يا أسامة..

صمت أسامة لحظة مصدومًا ومفكرًا.. ثم سأل في حدة:

- يوسف مقبوض عليه مين معايا؟

- أنا يوسف يا أسامة وهربت.. الموضوع كبير

وحياتي في خطر، لازم تساعدني..

- أصدقك ازاي؟

فكر يوسف لحظة قبل أن يجيب:

- فاكر ليلى في أولى ثانوي؟

ضحك أسامة ضحكة متوترة وقال:

- انت فين يا يوسف وايه اللي بيحصل؟ أنا سمعت الأخبار في التلفزيون بس ماصدقتش أبدًا.

- أنا دلوقتي في مكان كده بس هقول لك تقابلني فين بكرة الصبح وأفهمك كل حاجة. هحتاج منك حاجتين..

- خير؟

- تذكرتين قطر لاسكندرية، وهدوم شتا كويسة.. لفردين..

- انت معاك حد؟

- آه.. حوار طويل.. هشرح لك كل حاجة؛ أشوفك بس..

- تمام يا يوسف.. نتقابل فين؟

- فاكر كنا بنلعب كورة فين كل خميس؟

- أيوة أكيد.. هناك؟

- أيوة.. جوا المكان.. يلا سلام..

وأغلق الخط قبل أن يرد أسامة ،وقال لأوفة:

- يلا بيننا نخلع..

* * *

على الجانب الآخر من هذه الحكاية، كانت جلسة ضياء جدو منعقدة أمام المحكمة. كان جالسًا مطمئنًا لما أخبره به المحامي. لم يعد هناك شهود. لو كانت هناك أدلة، فقد تم الاعتناء بها. الضابط الذي قبض عليه متهمٌ الآن في قضية شنيعة، ستجعل كل من اعتقلهم يبدون كالملائكة

بالمقارنة. ويد سمير جدو وصديقه الطوانسي عضو مجلس الشعب تدخلتا، ليتم تسريع مجريات الأمور. هناك تناقضات واشتباهات كثيرة، ولكن لا صوت يعلو على صوت «جدو»! وبالفعل، تلا القاضي: حكمت المحكمة ببراءة المهتم.

ووقف المتهم بوجه برئ مبتسم يستقبل الحكم.

* * *

بينما قاد شريف الزيني سيارته في شوارع القاهرة، كان يفكر في لغز ذلك الضابط، الذي اختفى كأنما تبخر في الهواء. لقد أمر بمراقبة جميع أهله وأصدقائه ومعارفه. وضع المخبرين حول كل الأماكن المحتمل منه زيارتها. أين هو؟ أين يعقل أن يكون قد اختفى؟ هناك شخص واحد سيذهب لزيارته بنفسه، لسؤاله. شخص لا يقدر على وضعه تحت عدسة الشك.

توقف العقيد بسيارته أمام فيلا شاكر هارون. أخبر البواب أن لديه موعدًا مع شاكر باشا، ففتح له

البوابة قائلًا:

- أهلًا شريف باشا.

شاكر هارون، اللواء المتقاعد ورجل الأعمال الحالي، أحد الرجال الكبار في البلد. والأهم، أنه ابن عم والد يوسف الهارب، وابنته كنزي هي خطيبته.

ترجل شريف الزيني من سيارته، وتقدم نحو الفيلا ليرن جرس الباب. فتح له شاكر هارون بنفسه قائلًا:

- أهلا أهلا سيادة العقيد.

دخل شريف الزيني الفيلا وهو يقول:

- شاكر باشا ازي حضرتك؟

رد هارون التحية في هدوء:

- تمام وانت؟

- كل خير يا باشا..

أجلسه شاكر هارون في الصالة الواسعة وسأله:

- تشرب ايه؟

- لا شكرًا مافيش داعي للإزعاج..

ثم اعتدل شريف في جلسته وقال:

- كنت جاي لحضرتك بخصوص موضوع الرائد يوسف.

انقلبت تعبيرات شاكر هارون، ورد بتجهم:

- أنا ماليش أدنى علاقة بالموضوع ده.

- أكيد يا باشا حضرتك بعيد عن الموضوع، ده مش محل شك أو سؤال.. بس جاي أسأل حضرتك لو عندك أي معلومات ممكن نوصل لمكانه إزاي

رد هارون في حدة:

- معرفش! ولو أعرف كنت سلمته بنفسه! أنا متبري منه ومن أسرته اللي ربت كائن زي ده..

ثم قام هارون باشا من كرسيه، وقال معلنًا انتهاء المقابلة القصيرة:

- أنا هقوم أريح شوية، أنا صحتي لا تحتمل الانفعال.

- اتفضل يا باشا.. آسف أني أزعجتك

وقام شريف الزيني من كرسيه، أحمر الوجه يكظم غيظه، متجهًا نحو باب الخروج.

* * *

في نفس ذلك الوقت، كان يوسف واقفًا داخل الملعب القديم المقابل لمدرسته، الذي فوجئ لرؤيته مغلقًا، لا أحد يلعب به. لكنه سرعان ما فكر أن هذا أفضل، فهكذا سيلاحظ لو جاء أحدهم وراء أسامة مراقبًا.

انتظره أوفة خارج السور، يؤمن له المكان، بينما دخل هو الملعب وجلس على الكراسي الجانبية. نصف ساعة مرت، قبل أن يظهر أسامة متسللًا.

أشار له يوسف أن يقترب مسرعًا، ودخل به نحو حمامات الملعب، ثم عانقه.

- ازيك يا أسامة؟

- انت اللي ازيك يا يوسف، عامل ايه؟ ايه اللي بيحصل ده؟

- مش عارف يا أسامة.. ده اللي بحاول أعرفه.. فيه لعبة خطيرة اتلعبت ضدي، ولازم أواجهها دلوقتي بأي شكل.

- وناوي على ايه.. هتواجهها ازاي وانت البلد مقلوبة عليك سواء الناس وللا الداخلية؟

- لسه بفكر.. بحاول أفتكر ازاي الأمور وصلت لكده.. مين غدر بيا الغدرة دي، وليه..

لاحظ أسامة فجأة الدماء على بنطال يوسف فصاح:

- وايه ده؟ انت كويس؟

- ماتخافش جرح بسيط وربطته؛ مش حاجة.. ماتقلقش نفسك. بس انها واضحة كده ده معناه أني لازم أغير البنطلون.

ناوله أسامة حقيبة ظهر مملتئة عن آخرها وأخبره:

- جبت لك هدوم وشوية حاجات تانية احتياطي وأكل وفلوس..

ثم أخرج من جيبه التذكرتين وناوله إياهما قائلًا:

- ودول تذكرتين هيطلعوا على العصر من محطة مصر..

ثم أخرج شيئًا آخر من جيب بنطاله وناوله إياه، فابتسم يوسف وقال:

- كنت عارف انك هتخمن ده لوحدك، عشان كده ماحبتش أقول.. احتياطي لو المكالمة متراقبة..

أخذ منه مفتاح شقة الإسكندرية، التي كثيرًا ما سافرت إليها الثلة مع بعضها في الماضي، ليقضوا أيامًا من العطلة الصيفية هناك. ابتسم يوسف وهو

يتذكر الماضي، الذي صار يبدو الآن كحلم برئ جميل. قال يوسف مربتًا على كتف أسامة:

- شكرًا يا أسامة.. انت بجد صديق حقيقي.. غيرك كان خاف يرد عليا حتى..

- عيب عليك يا يوسف.. أنا متأكد من براءتك ولازم أساعدك بأي شكل..

أكل الشجن قلب يوسف، فهرب منه بسرعة قائلا وهو يلكز كتف صاحبه:

- أنا هسافر دلوقتي، وانت امشي يلا واتأكد ان ماحدش وراك.. وان شاء الله المرة الجاية نتقابل يكون الهم ده انزاح..

- ان شاء الله.. سلام يا صاحبي..

قالها أسامة وخرج مبتعدًا، بينما وقف يوسف يتذكر أيام مراهقته.. كان شخصًا مختلفًا، كانت هموم الحياة أقل، كانت نفسه أكثر صفاءً.. ماذا حدث له؟.. تذكر حديث الجدود، فضحك من

نفسه. لقد شاخ مبكرًا جدًا عما يجب.

دخل عليه أوفة فجأة وقال له:

- مش يللا ولا ايه؟

أجابه يوسف:

- يللا..

* * *

فتح يوسف عينيه على صوت أغنية قديمة يتسلل من الراديو لأحلامه، ورائحة إفطار شهي من الفول والطعمية. قام من على سريره، ونظر عبر باب الغرفة إلى الصالة، حيث فتح أوفة النوافذ والستائر، وأخذ يضع الافطار على السفرة وهو يدندن مع الأغنية. ابتسم له يوسف وقال:

- ايه الروقان ده يا أوفة؟ وطي الصوت كده وهدي الدنيا متسيحلناش.

ضحك له أوفة وقال:

- اسكندرية بقى يا ابن عمي وجوها.. افتكرت المرة اللي صيفت زمان مع أهلي هنا، وكنت بنزل اجيب لهم الفطار بدري كل يوم الصبح..

ثم جلس على السفرة وهو يشير إلى الكرسي المقابل له ويقول مازحًا:

- وكمان انت محتاج تتغذى عشان رجلك تخف، وترجع سليم.. مش عارفين هنضطر نجري تاني امتى.

ضحك يوسف وقال له:

- لأ والله مافيش حيل أجري.. يمسكوني وخلاص.

- لأ بعد الشر..

اتخذت نبرة أوفة جدية حقيقية قائلًا:

- انت بتقول انك برئ وأنا مصدقك.. انت مجدع، واللي زيك مايعملش الشغل الخسيس ده. ده انت حتى كمان ساعدتني وأوتني معاك، مع إني مجرد مجرم ماليش لازمة في الدنيا.

سكت يوسف لبرهة. سبحان مغير الأحوال، الذي جمعه بأوفة، ليرى كإنسان ما منعته المهنة من أن يراه رغم طول السنين. قال له يوسف:

- انت تقدر تتغير يا أوفة لو عايز.. انت إنسان نضيف. صفي نيتك بس وربنا هيديك فرصة تانية.. شوف.. برغم كل اللي حصل، ولسه ربك صابر عليك، وأديك لا في السجن ولا مقتول..

كـان قـد مضـى عليـهما فـي هـذه الشـقة حوالـي أسبوع. بدأت تتكون بينهما صداقة، شكَّلتها المحنة الواحدة. في المحن، نحكي بأريحية فقط لشركاء المحنة. ائتمن كلاهما رفيقه، وحكى له كيف وصل لهذه النقطة في قصته.

سأل يوسف أوفة:

- انت ايه خطتك الجاية؟

تناول أوفة لقمة فول، قبل أن يشرد، كأنما يتخيل مستقبلًا سعيدًا، ويقول:

- جوز خالتي زي ما قلت لك هيدبر لي خلعان من البلد خلال شهرين تلاتة كده، وقتها ههرب ومش هبص لها تاني.. ولما أستقر بره كده وألاقي شغلانة وبيت، هبعت أجيب أمي وعبدالله ابني.. وأحلام..

ابتسم له يوسف وقال:

- ربنـا يوفقـك يـا سـيدي ونشـوفك إنسـان نـاجح شريف كده..

ضحك أوفة وقال:

- يسمع من بؤك ربنا..

ثم سأله:

- وانت ناوي تعمل ايه..؟ بقالنا ييجي اسبوعين هربانين وخبر هروبك اتعرف، والبلد كلها مقلوبة عليك.. صحيح حلقت شنبك وغيرت شوية في شكلك، بس لسه ممكن أي حد ياخد باله.. مش أمان نفضل كده على طول..

ترك يوسف اللقمة من يده، وشبك أصابعه وشرد..

- أكيد.. أنا كنت بفكر كتير اليومين اللي فاتوا.. أعتقد إني دلوقتي عارف حل اللغز عند مين

- مين؟

- أبوزيد ومصطفى.. الأمينين اللي كانوا معايا في الشغل، واختفوا وقت ما بلغوني ان الولدين ماتوا.. أبوزيد ده كان بيحاول يقنعني بلاش أقبض على ضياء جدو، وكان بيقول لي نمشي ونستنى دعم

من القسم.. كمان وقت ما كنت تعبان ونمت في القسم اتهيألي اني حلمت بيهم دخلوا مكتبي. أكيد ماكانش حلم وخدوا مفتاح التلاجة فعلًا من عندي..

- هم مش بيشتغلوا معاك من زمان؟ ليه هيعملوا معاك الدنيئة كده؟

- مش من زمان.. مانا قلت لك أنا ماكنتش في القسم الأول، بس لولا الظروف اتنقلت هناك. مصطفى ما طلعش غبي زي ما انا كنت فاكر؛ هو كان مستغبي علشان يعمل حاجة معينة من غير ما اخد بالي انه قاصد

- والعمل دلوقتي؟

- لازم أوصل لهم، وآخد منهم اعتراف باللي عملوه.. بس أعملها ازاي دي، لسه مش عارف.. هم مش هينيين ومش لوحدهم.. أبو الولد القاتل وراهم وهو راجل تقيل في البلد.

حلت لحظة من الصمت بينهما، وقد شرد كلٌ منهما

في التفكير في الأمر نفسه.. الناس المهمة في البلد.. لماذا يكون على نفس الأرض ناس ثقيلة وناس لا ثقل لهم، ولا يشعر بهم ميزان العدل؟.. كان أوفة يفكر أن يقول ليوسف أنهم - الداخلية- السبب الأول في خلل الميزان. وكان يوسف يريد أن يقول لأوفة أنه وأمثاله السبب في إجهاد البلد وفتح المجال للفساد الأكبر. رغم تفكيرهما في نفس المأساة تضاد اتجاههما تماما، وإن اجتمعا على الحنين للعدل. ثم فجأة ،شق الصمت صراخ امرأة قريب، وصياح أطفال. صاح أوفة:

- ايه ده.. يا ساتر.. هو احنا موعودين بصريخ النسوان وللا ايه!

قام كلاهما مسرعين، فقد كان من الواضح أن الصوت قادم من نفس الدور في العمارة. فتح أوفة باب الشقة بعد لحظة تردد، فوجدا باب الشقة المقابلة مفتوحًا على مصراعيه، وخلفه بدا ثلاثة أطفال يصرخون، حول امراة يمسكها بعنف من ذراعها ويلويه رجل فظ المظهر، بينما يصيح

الأطفال:

- خلاص يا عمي! كفاية! حرام! سيب ماما!

أسرع كلاهما يهدئان الموقف، وصاح يوسف:

- صلوا على النبي بس فيه ايه بيحصل!

لم يأبه به الرجل أو حتى ينظر نحوه، وقد تناثر الشرر من عينيه وهو يسب الأطفال ولا يدع السيدة. أمسك يوسف بيده في عنف وقال له:

- فيه ايه صلي على النبي.. عيب راجل يمد ايده على ست كده!

نظر له الرجل متعجبًا وصاح:

- انت مين يا جدع انت، وايه حشرك انت!

- أنا جارك يا عمنا تعالى بس نتكلم.. ده برضه منظر يعني نفتح الباب نلاقيه؟ مايصحش يا بن الأصول!

التفت إليه الرجل باستحقار، ثم دفعه جانبًا وهو

يقول:

- اطلع بره.. انت مش واخد بالك ان ده بيتي لا مؤاخـذة وانـا حـر اعمل فيـه اللـي انـا عـايزه؟! ماحدش دخلك ومالكش دعوة!

ثم اندفع نحو المرأة مرة أخرى، وهو يصرخ فيها:

- عاجبك اللي جايباهولنا ده!

لكن أوفة أسرع ووقف قدامه وقاطعه:

- انت هتحترم نفسك، ولا هتعامل معاك انا بقى؟ البيـه كلمـك بالأصـول، انمـا انـا بقـى ابـن شـوارع وهعـرف اتفـاهم معـاك.. (أمسـكه مـن قفـاه وهـو يكمل) انت مين انت وعايز ايه من ام العيال دي؟

- وانت مال أهلك!

انفعـل أوفـة.. لاااا.. مـش انـا اللـي تكلمني كده يـا جدع.. كان قد أخذه الحماس، فلكم الرجل فجأة بدون تردد، لكمةً أسقطت الرجل الذي لم يتوقعها أرضًا، فجلس ثانية مذهولًا، قبل أن يقوم ويخرج

من الشقة مسرعًا وهو يقول:

- والله عال يا بنت الكلب.. جايبة رجالة في بيتك يحامولك.. اوعي تفتكري انك هتفلتي مني، والله لأوريكي!

انهارت المرأة على الأرض تبكي، وجرى إليها أطفالها الثلاثة يحتضنونها ويبكون مع بكائها. أكبرهم بدا في حوالي الحادية عشر من عمره، وثانيهم ربما في الثامنة، بينما الفتاة الصغيرة قد تكون في الخامسة أو أقل قليلًا. وقف يوسف وأوفة حائرين، لا يدريان ماذا ينبغي عليهما، ثم همس يوسف:

- يلا بيننا نمشي احنا..

لكن أوفة قال كأن لم يسمعه:

- هو ايه اللي بيحصل يا مدام، مين الجدع الشراني ده؟

كأنما انتبهت المرأة للمرة الأولى أنهما ما زالا

موجودين، فأبعدت عيالها وقامت فجأة من على الأرض، وجلست على الأريكة، وقالت وهي تمسح دموعها:

- ده عم العيال، أخو جوزي الله يرحمه شقيقه. عايز يطرد لحمه ودمه من الشقة.

مدت ذراعها نحو أطفالها ليحاوطوها، بينما أكملت الحكي:

- من زمان وهو عينه على البيت ده. هو كان بيتهم من وهم صغيرين، بس بعد وفاة والدتهم أحمد الله يرحمه اشترى منه نصيبه عشان نتجوز فيه. وبعدين لما أحمد اتوفى عرض عليا نتجوز، وقعد يقول سترة وعشان العيال والفلوس. ما قدرتش.. حاولت اكتفي شره وأقبل بس ما قدرتش.. أحمد لسه في قلبي عايش ما ماتش.

من ساعتها قلب علينا.. بطل يزورنا، وقطع مصاريف العيال وسابني بيهم. وفجأة من شهرين طلع تاني، ومعاه عقد بيقول ان جوزي باع له

البيت قبل ما يموت، وان البيت من حقه وعايزنا نمشي منه..

سألها يوسف:

- وهو ده حصل فعلًا؟

ردت بسرعة بكل يقين:

- مستحيل! أحمد كان عمره ما هيسيبنا من بعده نتشرد! ده كان دايمًا شايل همنا، برغم إنه كان لسه زين الشباب...

سالت دموعها ساخنة هادئة حزينة. مسحتها وأكملت:

- رجع كرر طلبه.. يا الشقة، يا الجواز، يا يرفع عليا دعوة وياخد مني العيال..

قال يوسف من بين أسنانه:

- ده راجل خسيس

كاد أوفة يضحك من تعبير يوسف. قال في باله:

«ولاد الناس كلامهم غير».. كتم ضحكته وعقب:

- بس احنا موجودين. لو رجع تاني خبطي علينا بس، واحنا نتصرف معاه..

نظرت لهما مبتسمة وقالت:

- كتر خيركم، الدنيا لسه فيها خير.. لسه في رجالة في الدنيا بعدك يا احمد

بدت كأنما انتبهت فجأة لشيء كانت غافلة عنه..

- هاقوم اعمل لكم الشاي. عندي نعناع بلدي

لم يحاولا الاعتذار. جلسا مع الأسرة الصغيرة، يحتسيان الشاي بالنعناع الأخضر، ويتعرفان على الأطفال الصغار، وأخذ يوسف يداعبهم ويسمع منهم حكاياتهم، بينما انهمك أوفة في تبادل الحديث مع المرأة، التي عرفا أن اسمها نجلاء، وأنها تعمل في أحد المطاعم القريبة، لاكتساب رزقها وسد مصاريف أولادها في هذا الزمن الصعب. مر الوقت، فقامت نجلاء إلى مطبخها

الصغير، وهي تحلف بالله عليهما أنهما سيتغديان مع الأولاد. للمرة الثانية لم يعترضا. جمعتهم مائدة بسيطة، حلَّت عليها بركة النية الطيبة، فطابت للآكلين، ثم استأذن يوسف وأوفة عائدين إلى شقتهما، شاكرين لها الوجبة اللذيذة، بينما ردت:

- ده أقل واجب.. ما ييجي على وقفتكم معايا.. ربنا يحميكم.

وعندما عادا لشقتهما، كان الليل على وشك أن يغشيهم، فلجئا للأريكتين يمددان جسديهما ويسترخيان. لاحظ يوسف شرود أوفة، فسأله:

- مالك؟

بدا على أوفة أنه يكتم مشاعر قوية ثائرة بداخله. اختنق صوته وهو يقول:

- مافيش.. عبدالله ابني وحشني بس..

ثم التفت ليوسف وقال:

- لو حصل لي حاجة، هيبقى عبدالله زي الأولاد

دول؟ ممكن أي حد يستهون بيه وياكل حقه عشان مالوش ضهر؟

- ماتقولش كده يا عم، ربنا يخليك له..

- .. أنا ازاي ماكنتش بفكر في ده! أنا كنت ماشي في سكة بطالة ومش شايف غير نفسي وخلاص.. ازاي مافكرتش في ابني اللي مالوش غيري بعد ما أمه ماتت؟!..

ربت يوسف على كتفه وقال:

- ماتخافش يا أوفة كده.. ربنا لسه مديلك فرصة تانية تعدل من سكتك.. تفتكر ده عشان هتموت وللا عشان ترجع لعبدالله سليم وتاخد بالك منه؟..

قال أوفة:

- بس نجلاء دي شكلها بنت طيبة والله، ربنا يكون في عونها..

- يا رب..

ثم قال له يوسف:

- أنا عايز أنام.. قوم نام يا أوفة وسلم أمرك لربك

دخل كلٍ منها غرفته.. وبينما رقد يوسف على سريره، يفكر كيف سينال من أبوزيد ومصطفى الخائنين، لم يقدر أوفة أن يتوقف عن التفكير في نجلاء وحياتها.. وخاصم النوم الرفيقين.

* * *

رن جرس الباب، فتوتر يوسف، هو وأوفة يتوجسان من قد يكون هذا القادم؟

تحرك أوفة على أطراف أصابعه، ونظر من العين السحرية، فوجد رأسًا ظاهرة في الأسفل، فتذكر أولاد نجلاء. فتح لهم الباب مبتسمًا، فناوله الأصغر طبق البسبوسة البيتي قائلًا:

- ماما باعتة ده لعمو يوسف..

أشار له أن يدخل، فاتجه إلى يوسف، الذي تناوله منه، وهو يقول للطفل:

- شكرًا يا حبيبي، وقل لماما شكرًا..

ربت على رأسه، وجرى الأطفال منصرفين، بينما نظر هو نحو باب شقتهم. كان بإمكانه تخمين أن نجلاء على الناحية الأخرى منه، تراقبهم من العين السحرية، فابتسم لها قبل أن يغلق بابه.

قال له أوفة وهو يتناول قطعة من البسبوسة:

- قلت لك الست دي جدعة والله.. ده ييجي خامس طبق تبعتهولنا..

- تسلم ايدها يا سيدي..

قال أوفة فجأة، كأنما نسي نفسه وترك أفكاره تسيل على لسانه:

- ربنا يرحمه جوزها، أكيد كان راجل محظوظ.

نظر له يوسف مبتسمًا في شك، ولم يعلق. تجاوز أوفة إيحاء يوسف وسأله:

- مافيش أخبار جديدة؟

- مافيش.. كلمت أسامة بس من محل تحت، طلبت منه يتقصالي أي معلومات ممكنة عن مصطفى وأبوزيد، نفسي يلقط هفوة واحدة بس تخليهم يقعوا في ايدي..

قال له أوفة:

- ربنا معاك يا زميلي.. هانت وتفك..

- وانت.. مافيش اخبار من جوز خالتك؟

- هو قالي شهرين، عدا تلت أسابيع منهم حوالي، فاضل خمسة.. دعواتك..

ثم جلس على الأريكة وقال:

- الواحد ابتدى يتعب نفسيًا..

ضحك يوسف:

- لا.. انشف كده.. دا انت اللي بتقول لي دايما شدة وهتزول.. نصبر عشان احنا مسؤولين عن ناس..

رن الجرس مرة أخرى، فسارع أوفة ليفتح هو الباب. كانت نجلاء هذه المرة هي من رنت الجرس، فابتسم لها أوفة ابتسامة واسعة..

- ازيك يا نجلاء؟

بادلته الابتسامة وقالت:

- الحمد لله كويسة وانت عامل ايه؟

ثم بادرت بالسؤال:

- أمال هو يوسف مش هنا ولا ايه؟

رد يوسف من الداخل:

- موجود.. اتفضلي..

قالت نجلاء:

- يزيد فضلك.. بس النهاردة عيد ميلاد أيمن الكبير، والولاد قالوا لي أقول لكم لو ما يضايقكوش تيجوا تاكلوا الجاتوه معاهم

أجابها أوفة مسرعًا، ومازحًا:

- أكيد ان شاء، هو احنا ورانا حاجة..

لم تدر نجلاء إن كان يقصد ذلك فعلا أم يتهكم، فنظرت له مرتبكة، فتنحنح وقال:

- قصدي ماوراناش حاجة فعلًا يعني..

كان يوسف قد جاء الآن على الباب وقال:

- إزيك يا نجلاء؟

فابتسمت له وقالت:

- الحمد لله ازيك انت كده؟

- نحمده على كل حال.. العيال كويسين؟

- أه كويسين، ما نتحرمش سؤالك.. كنت لسه بقول لأوفة انكم معزومين النهاردة على عيد ميلاد أيمن..

نظر يوسف لأوفة، فأومأ له، فقال لها:

- الساعة كام؟

- على العِشا كده حلو؟

- ان شاء الله هنصلي هنكون فاضيين بعدها، وهنرن عليكم..

ابتسمت ابتسامة واسعة وقالت:

- خلاص نشوفكم عالعشا، سلام..

ثم استدارت عائدة لشقتها، بينما تبادل يوسف وأوفة نظرات، لم يفهم وقتها أيٌ منهم ما قصده الآخر بها.

* * *

جلس الأطفال الثلاثة حول الطاولة الصغيرة، بينما وضعت أمهم قطع الجاتوة مع بعضها في المنتصف في طبق كبير، ثم قالت:

- اختار يا أيمن هتاخد أنهي..

أشار لها على واحدة، فوضعت فوقها شمعة

وأشعلتها، ثم أشارت للصغيرة على الأنوار، فأشار لها أوفة أن تبقى عند الشمعة، وأسرع هو بإطفاء الأنوار.. ثم بدأت هي وعيالها بغناء أغنية أبوالفصاد في مرح. لم تشترِ نجلاء كعكة كاملة، كي لا تختل موازنة الشهر، ولنفس السبب لم تضع سوى شمعة واحدة قصيرة، لم تكن تضع سواها في أي مناسبة، يطفئونها ثم تمسحها وتعيد الاحتفاظ بها للمناسبة التالية..

نفخ أخيرًا أيمن وأطفأ الشمعة، بينما صاحوا جميعًا «هيييييه». كانت روح المرح تغسل قلوبهم، وأضاء أوفة الأنوار، فتجلَّت ابتساماتهم كأنما هربوا جميعهم في هذه اللحظة من واقعهم، وألقوا عن كتوفهم ما يثقلها من الهم والأحزان. سألت نجلاء العيال:

- مين هينقي الأول، الأصغر وللا الكبير؟

فأسرع أيمن بالقول:

- عمو يوسف وأوفة!

ولدهشـــتهما، أيـــده الطفـــلان الآخـــران مباشـــرة، فسألتهما نجلاء ضاحكة:

- عمو يوسف وأوفة ياخدوا ايه؟

اختـار يوسـف القطعـة الأصـغر، بينما اختـار أوفـة بعشوائية، ثم جلس الجميع يتناولون قطعهم مع بعضهم البعض. أخذت البنت طرطورا ورقيا ملونًا، وتسلقت يوسف وألبسته إياه، فضحك وتركه على رأســه وأخــذ يلاعبــها. وجلــس الأطفــال الثلاثــة يلعبون، بينما جلس الكبار الثلاثة يتحدثون. ولكن قبل أن تمضي بضع دقائق، قاطعهم صوت طرقٍ عنيف على الباب، فقام الجميع مفزوعين، وتبادل يوسف وأوفة نظرة متوجسة. سارت نجلاء نحو الباب وهي تقول:

- يا ساتر.. مين ده!

فتحت الباب لتجد عم الأولاد قد عاد مرة أخرى، وهم بالصياح مجرد أن فتحت:

- خلاص يا نجلاء صبري نفد.. دلوقتي يا تقرري

يا..

فجأة ظهر أوفة من وراء نجلاء صائحًا:

- انت تاني يا جدع انت! ايه اللي جاب خلقتك المنيلة دي الساعة دي!

شحب وجه الرجل، الذي لم يتوقع أن يجد رفقة مع نجلاء، وسأل:

- انت مين وبتعمل ايه هنا؟

ثم التفت نحو نجلاء صائحًا:

- انتي بتجيبي رجالة للبيت يا سافلة!

كاد أوفة أن يلكمه مرة أخرى، لو أن أمسك يوسف بيده، وصاح أوفة:

- طب انجر من قدامي أحسن لك.. نجلاء من النهارده بقى وراها رجالة، ومافيش جبان زيك هيقدر يقرب لها تاني.. امشي أحسن لك..

قال يوسف مؤكدًا:

- انت سمعت كلامه.. وماتجيش تاني لو مش عايز مشاكل..

بدا على الرجل الارتباك، ثم نظر لنجلاء وقال لها:

- طب استعدي تخسري عيالك يا حقيرة، من بكرة هروح للمحامي وهجرجرك في المحاكم!

- طب يلا انجر انت، بدل ما أجرجرك على بلاط العمارة وأهو بقاله فترة مااتمسحش!

نظر له الرجل لا يصدق ما سمعه. كان ينتفض غضبًا، وفتح فمه ليرد، لكنه من شدة انفعاله لم يجد الكلمات، فولى منصرفًا.

أغلقت نجلاء الباب، ووقف ثلاثتهم صامتين، لا يجدون ما يقولون. وفجأة، قفز الأطفال الثلاثة مصفقين، وجروا نحو أوفة ويوسف يحضنونهم، وعادت البهجة وثرثرات عيد الميلاد تملأ المكان، ولكن عقل يوسف كان يضج بحسابات أخرى.

* * *

كانت الأيام تمضي، ولا جديد يغيِّر وتيرتها، وأوفة لا يعرف إن كان زوج خالته سيصدق القول، أم مثله مثل من غدروا به من قبل.. ولا حتى صار يعرف إن كان يريد الفرار خارج البلد، أم البقاء فيها وتغيير حياته. يوسف كذلك بدأ يتوتر، فهو يعلم أن لغز أي جريمة يتعقد ويضعف الأمل في حله كلما مر الوقت. رغم ذلك، كان الرفيقان يتقاربان، ويستكشفان بعضهما البعض، فتتوطد محبتهما، وتتحول لحقيقة تعززها العشرة والجدعنة. ذات مساء، سأل أوفة صديقه:

- انت جدع يا يوسف وأصيل.. ايه اللي رماك عالداخلية، ده مافيش حد ما يعرفش انها... انت عارف اللي فيها يعني

ابتسم يوسف متفهما.. كان يشعر بحسرة الظلم. نظر في عين أوفة وهو يفكر كيف يدافع عمن غدروا به وهو واحد منهم؟.. كيف يمكن أن يقنع أوفة أو غيره بما هو مقتنع به..

- هي الشرطة لوحدها اللي وحشة يا أوفة؟

- يعني ايه؟

- يعني هو الناس اللي حواليك كانوا حلوين وطيبين ومافيهمش الا الخير ومافيش الا الشرطة اللي معكننة عليكم؟.. هي الشرطة ايه غير ناس زي باقي الناس يا صاحبي؟

حار أوفة.. هناك جزء في كلام يوسف صح وحقيقي.. لكن كيف له أن يستوعب آخر جملة؟ الشرطة ليست «ناس زي باقي الناس».. يعرف ذلك جيدًا، ويوسف هو الذي لا يمكنه أن يعرف ذلك، لأنه محمي منهم، أو لأنه منهم.. ها هم قد تخلَّوا عنه، فلماذا يدافع عنهم لم يزل؟!

- أنا طول عمري كان نفسي أبقى ظابط.. ماكنتش شايف نفسي أي حاجة تانية.. وطول حياتي اشتغلت على تحقيق الحلم ده، من ابتدائي وأنا بتمرن سباحة ورياضات قتالية.. كنت بقرا كتب بوليسية أحيانًا.. أقنعت أهلي أتمرن رماية في

نادي الصيد.. ماحستش في حياتي إن فيه هدف تاني أهم عندي من ده، وكنت مستعد أضحي عشانه بكل حاجة.

بس من ساعة ما دخلت الشغلانة دي وأنا حاسس اني بتغير.. كل احتكاكي بقى مع السواد اللي في الدنيا، لحد ما بهت على حتة مني اسودّت جوايا.. بقيت حاسس إننا مش بنضف البلد، هي اللي بتوسخنا.. أول مرة، في أول عملية.. كنت خايف وأنا بضرب واحد.. بني آدم.. بنشن عليه وبضرب نار أموته! كنت هايب اللي عملته وفضلت تعبان مدة، وزمايلي يضحكوا ويقولولي معلش لسه مستجد. شوية شوية بقيت زيهم.. قبل ما يصدر قرار نقلي، كان خلاص الموضوع بالنسبة لي بقى متعة.. بقى جوايا غضب بطلعه، غضب اتراكم من كل اللي شفته، وآخرتها اتحول لسبب لفشلي الوحيد اللي نقلني للمباحث. أنا عدى عليا وقت يا أوفة مابقتش شايف غير الدم، ونسيت الهدف من الدم ده كان ايه!..

صمت أوفة يحاول استيعاب ما سمعه.. طال صمته لدقائق يقلب الكلام في رأسه، حتى اعتقد أنه فهم ما قال يوسف.. قال:

- بص، أنا هقول لك اللي فهمته، وتقول لي صح وللا غلط

أومأ له يوسف مبتسمًا

- انت يا صاحبي شغلك مش بتقابل فيها غير العكارة.. ما بتفصلش إجرام. طيب ازاي بقى تشوف الدنيا الحلوة اللي انت مش عايش فيها؟ انت فضلت عايش في البكبورت، لحد ما اقتنع عقلك ان كل الناس لا مؤاخذة يعني خرة

ضحك يوسف حتى غلبه السعال. ابتسم أوفة لم يفهم هل يسخر منه صاحبه أم ماذا، فهز رأسه متسائلا، فأومأ يوسف برأسه، وقاوم ضحكه وأجابه:

- صح يا أوفة.. بالظبط كده، انت عبرت عنها أحسن مني كمان يا راجل

صمت أوفة لحظة، ثم قال بنبرة ذات شجن:

- انت على الأقل عشت حياتك لك هدف وسعيت لـــه وحققتــه.. أنـا طـول عمـري اللـي عشـته ده ماعنـديش هـدف.. وأنـا فـي المدرسة كنت بنجـح وخلاص بالغش، ماكنتش أعرف المنهج ايه أساسًا. مـاكنتش أعـرف أي حاجـة.. كـان همي بس ألعب كـورة، وآخـد فلـوس مـن ورا ضـهر أمي الشقيانة علينـا مـن بعـد أبويا، اروح بيها أتسرمح مع شلة فاسدة بعيد عنك. ولما وصلت إعدادي، حسيت ان الدراسـة مـابقتش جايبـة همـها.. قـررت أوقـف، وأجـرب نفسـي.. سبت المدرسة من غير أمي ما تعرف.. بطلت أروح وخلاص.. وفجأة، لما دخلت الدنيا كده، اكتشفت اني مش عارف حاجة.. لا أنا اتربيت من صغري على صنعة أشتغل بيها، ولا أنا اتعلمت حاجة في المدرسة.. جربت أشتغل مع أمي فـي الطعميـة شـهرين، بعـد مـا عـرفت إنـي سبت المدرسـة. أصـل بعتولها جـواب انـهم رفـدوني.. صوتت بقى وقلبت الدنيا، بس انا نشفت دماغي..

المهم، شغلتني معاها، بس ماكنتش قابل مسؤولية اني أبقى شغال.. مالقتش غير نفس الشلة اللي انا ملموم عليها، اللي أقنعوني ان الحرام هو سكة اللي مالوش سكة: لو الدنيا ماادتكش حاجة، خدها انت بنفسك، مش أحسن ما تموت!

أنا صدقتهم، أو كنت عايز أصدقهم.. حاولت أمشي في كل حاجة.. بس طلعت نشال فاشل، وحرامي فاشل.. أيام ما جربت موضوع اني ابقى هجام بيوت ده، كنت ببقى هعملها على نفسي من الخوف كل مرة، ومش بطلع بحاجة. كنت بخسَّر نفسي كل حاجة حلوة تيجي في سكتي.. حسيت ان وقعتي في المدارس كانت ارحم من وقعتي في الحرام.. واهو على الأقل ولاد المدارس لسانهم مش زفر زي شلة الأنس اللي سموني المنحوس والخايب والنجس وغيره وغيره.

أمي دي بقى ست مكشوف عنها الحجاب. حست اني قرفان منهم، اصطادتني.. أقنعتني أكمل تعليم ورجعت أذاكر من منازلهم وخدت الاعدادية

وبعدها كملت لحد ما خلصت معهد فني صناعي. عملت انا حاجة كده؟ أبدا.. طلعت منه برضه زي ما دخلت. واتجوزت بنت غلبانة كانت بتشتغل عند كوافيرة.. بتقعد تحت رجلين الحريم تصنفر لهم كعابهم. استحملتني، وانا طلعت عينها. (ابتلع ريقه وسكت لحظة، ثم أكمل) ولحد آخر يوم ليها في الدنيا ماكنتش مصدق انها تعبانة بجد. ربنا رحمها مني.. سابتني انا وابني الوحيد، مش عارف أعمل فيه ايه. مااعرفش الأبهات بيعملوا ايه.. ماكنش عندي واحد.. أمي كتر خيرها عارفة ازاي تكون أب وأم في نفس الوقت، وابني كان بالنسبة لها محاولة تانية بعد ما خاب رجاها فيا. فضل حالي بقى أوحش وأوحش، والدنيا تلطش فيا وألطش فيها، لحد بقى ما وصلنا للقصة اللي انت عارفها.

كانت الليل قد حل، وظل كلاهما جالسًا يفكر في ماضيه، ويتساءل ماذا لو لم تسر الحياة في هذه الاتجاهات المظلمة. لم يفكر أحدهما أن يضئ المصباح، فربما أفلتت منه دمعة لا يريد أن تفتضح أمام رفيقه. وفجأة، طرق الباب.. هذه المرة لم تكن

الطرقة الهادئة المعتادة لنجلاء، ولا المتحمسة لأطفالها.. كانت طرقة متوترة خائفة..

قام يوسف ليفتح الباب، فوجد نجلاء بوجهٍ مرهق تنظر له وتقول:

- أيمن عيان من امبارح يا يوسف وحرارته عالية قوي. ممكن تاخدوا بالكم منه هو واخواته على ما انزل أجيب الدكتور؟

قال يوسف بحزم:

- تنزلي ايه عيب عليكي، أنا هنزل أجيب له دكتور وانتي خليكي جنب ابنك..

عاد مسرعًا لأوفة ليخبره بالموقف، ثم نزل مسرعًا، بينما عادت نجلاء لشقتها وهي تشكره كثيرًا..

لم يكن يوسف يذكر المنطقة جيدًا بعد كل هذه السنين، لكنه كان يتذكر -ولا يدري كيف- أن على الناصية كانت توجد عيادة طبيب. جرى نحوها وهو يدعو أن تكون مفتوحة في هذه الساعة من

الليل، وعندما وصل لها ابتسم لرؤية أن الأضواء ما زالت مفتوحة، لكنها أطفئت قبل أن يصل إليها. جرى نحو العمارة وانتظر تحت العمارة، وكلما خرج منها أحد سأله:

- حضرتك دكتور إبراهيم؟

حتى أجابه رجل يحمل حقيبته عائدًا لبيته:

- أيوة أأمر؟

- الولد تعبان جدًا هنا في الشارع، ومحتاجين دكتور يشوفه..

- لو الموضوع يستنى ممكن أشوفه أول حالة بكرة، بس الوقت اتأخر ولازم أروح..

- مايستناش.. الولد تعبان جدًا ويا ريت حضرتك تشوفه.. أمه هتموت من القلق عليه!

بدا على الطبيب الامتعاض، لكنه لم يجرؤ على الرفض.. أي وحش ذاك الذي يرفض نجدة طفل صغير؟

عاد به يوسف إلى البيت، حيث قام بالكشف على أيمن الصغير، بينما وقفت نجلاء القلقة بجانبه. أنهى الكشف، ثم أخبرهما بأن ما به عدوى بفيروس منتشر في هذه الفترة من العام، وأن عليها ألا تقلق، وكتب له عدة أدوية، ثم ناول يوسف الروشتة، فأخبرها أنه سيوصل الدكتور إلى سيارته وسيأتي فورًا. نزل يوسف مع الطبيب إلى أسفل، وشكره وحاسبه، ثم سار يبحث عن صيدلية مفتوحة، حتى وجد واحدة، وعاد بالأدوية إلى نجلاء، التي ابتسمت له بعينٍ دامعة وقالت:

- أنا مش عارفة أقول إيه.. شكرًا مش كفاية..

- شكرًا على ايه بس، ده واجب، أيمن ده حبيبي، ربنا يقومه بالسلامة.. هو عامل ايه دلوقتي؟

- حبيبي نايم دلوقتي من التعب، ربنا يخفف عنه..

ثم جلست على الأريكة في الصالة وقالت:

- أنا في حياتي ماشفتش انسان زيك.. أول مرة

أحس اني ليا سند من ساعة أحمد..

لم يدر يوسف بما عليه الرد، قال:

- أنا بحاول أعمل الواجب بس..

- ده واجب الملايكة مش البشر.. ماعادش في بشر بـيفكروا فـي الـواجب ده.. مـا انـت شـفت عمـهم بيعمل ايه فينا

قاطعها يوسف:

- مافيش حاجة اسمها كده.. مفيش بشر ملاك..

ولكنها أكملت:

- .. عشان كده مش مصدقة كل اللي بيقولوه عنك..

لوهلة، لم يستوعب يوسف ما قالته.. دق في عقله إنذار، وسألها:

- مين اللي بيقولوا عني ايه؟

- انت الضابط يوسف، الهربان اللي بيدوروا عليه؛

مش كده؟

لم يرد عليها يوسف نافيًا أو مثبتًا. ظل ببساطة صامتًا..

- انت صحيح حلقت شنبك.. مغير شكلك شوية عن الصور. بس يمكن ده يخلي الناس اللي في الشارع مياخدوش بالهم، انما هنا.. فجأة كده الشقة اللي طول عمرها قدامنا كانت مهجورة تيجي انت وأوفة تسكنوها.. في نفس الوقت اللي واحد شبهك البلد كلها مقلوبة عليه. الحكومة والناس اتفقوا مع ان عمرهم ما بيتفقوا.. وبيقولوا انك قتلت ولدين في القسم..

انفعل يوسف:

- ماحصلش!

أسرعت نجلاء تقول:

- أنا عارفه انه ماحصلش.. أنا مش فاهمة ايه اللي حصل.. بس لو برئ، ليه هربت؟

- ماكنتش مخطط لده، بس جت كده.. ودلوقتي بقيت متأكد انها حكمة من ربنا، عشان أنا كمان محتاج أفهم ايه اللي حصل..

سكتت نجلاء لحظة، قبل أن تقول:

- يوسف.. أنا فيه حاجة عايزة أقولها لك..

أحس يوسف بما تريد أن تقول، فأسرع:

- خدي بالك يا نجلاء.. في الظروف دي، خدي بالك ماتقوليش حاجة تندمي عليها..

صمتت نجلاء وأخذت تفكر.. ثم عاد يوسف ليقول لها:

- أنا عارف ان الانسان صعب يتحكم بمشاعره، لأن أنا شخصيًا جوايا مشاعر كتير مش مستقرة، ومش عارف أسيطر عليها.. عشان كده الأحسن ان الإنسان مايمشيش وراها..

هل كان يوسف في هذه اللحظة يفكر في كنزي؟

- أنا هقوم بقى، الوقت اتأخر وأنا عايز أنام فعلًا.. تصبحي على خير يا ام أيمن..

- وانت من أهل الخير يا يوسف..

أغلقت الباب وراءه، وظلت تفكر في هذا الحوار، وما قد يترتب عليه فيما بعد..

* * *

ما إن دخل يوسف الشقة حتى فوجئ بصوت في الظلام يسأله:

- كنت فين كل ده؟

- مافيش يا أوفة.. نزلت جبت له الدكتور، وبعدها جبت له الأدوية، وقعدت معاهم شوية اتطمن عليه..

- أصلك طولت عندهم بزيادة..

سار يوسف للداخل نحو غرفته، وقال:

- مافيش، قعدت بس على ما الولد نام، قلت أونس

أم أيمن وهي قلقانة كده..

- بتونسها آه..

التفت يوسف نحو أوفة الجالس على الأريكة في الظلام، وقال:

- فيه حاجة يا أوفة؟ انت ايه اللي مقعدك كده في الضلمة؟

- مافيش، كنت مستنيك يا زميلي، الوقت متأخر والدنيا مقلوبة..

توقف يوسف لحظة..

- آه.. على فكرة نجلاء عارفة سرنا..

نسي أوفة ما كان يدور في ذهنه من أفكار وانتفض معتدلا في جلسته

- انت بتقول ايه!

قفز نحوه يسأله:

- انت اللي قلت لها؟!!

- لأ طبعًا، انت شايفني غبي؟! هي اللي عرفتنا من الشبه، وعشان ظهرنا في الشقة فجأة..

فكر أوفة لحظة وقال:

- عندها حق.. انت وشك في كل مكان في التليفزيون أساسًا، كل ما بخرج بشوفه.. ماكانش المفروض انت اللي تخرج للدكتور، كان المفروض يبقى أنا، بس انت نزلت على طول مستعجل.. كان المفروض أنا برضه أنا اللي أنزل أجيب الأدوية، وأنا اللي أقعد معاها..

رد يوسف بصوتٍ منخفض وهو يهم بدخول غرفته:

- آه طبعًا دي أهم حتة..

سمعه أوفة، فسارع بالسؤال:

- قصدك ايه؟

- انت عارف قصدي يا أوفة.. أنا بشوف انت بتبص لها ازاي واحنا عندهم، أو من شباك المطبخ لما تبقى هي واقفة بتطبخ.. ومش عارف بصراحة انت نيتك سليمة وللا لأ..

ظهر الانفعال في صوت أوفة الذي صاح:

- انت بتلمح لإيه يا صاحبي؟ أنا ماعملتش حاجة غلط..

- آه.. لحد دلوقتي..

- انت بتتكلم معايا كده ازاي! انت شايف نفسك أحسن مني؟!

لم يرد يوسف، وعاد متوجهًا نحو غرفته، فتبعه أوفة:

- اوعى تكلمني كده تاني يا يوسف! احنا الاتنين هربانين، محدش أحسن من التاني!

- بس على الأقل أنا برئ..

بلغت عصبية أوفة أوجها وهو يرد:

- الله أعلم، مين عارف! ما كله بيقول برئ!

نظر نحو يوسف في الظلام، ثم لم يشأ أن يكمل الحديث، واستدار وأغلق الباب وراءه.

* * *

على التوازي، كان أوفة ويوسف - برغم التوتر الذي نشأ بينهما- يقومان بوضع اللمسات الأخيرة في خطتهما للإيقاع بمصطفى وأبوزيد. أول مراحل هذه الخطة، أن أسامة استغل عمله في شركة اتصالات، وجاء ليوسف بأرقام مصطفى وأبوزيد، والأرقام التي يتواصلون معها دومًا، وأسماء أصحاب هذه الأرقام. كما توقع يوسف، كان اسم سمير جدو بين هذه الأسماء. كان محقًا في استنتاجاته عن السبب الذي زج به في هذه المحنة. كل هذا حدث.. الشابان البريئان اللذان قتلا شر قتلة، واتهامه وضياع مستقبله، كل هذا ليهرب شاب فاسد قاتل من العقاب، ويكفي أن يكون اسمه ضياء جدو لينجو من عواقب فعلته!

عاد يوسف يطلب من أسامة طلبًا غريبًا، لم يفهم أسامة سببه، ورآه أمرًا خطرًا، وربما قد يكشف أسامة نفسه. لكن يوسف ألح عليه أن يثق فيه، وأكد له أنه لن يخاطر، لا بنفسه ولا بأحد ممن حوله. كان على أسامة أن يأتي ليوسف برقم العقيد المكلف بالبحث عنه، شريف الزيني، الذي

حكى له أسامة أنه أتى إليه ليتحرى عن يوسف، من ضمن من ذهب إليهم من معارف يوسف. وبالفعل، وفي ساعة متأخرة من الليل، اشترى يوسف خط هاتف من أحد الفرشات في الشارع، واتصل منه بشريف الزيني ليخبره:

- اللي انت بتدور عليه في قضية الظابط هتلاقي سره عند مصطفى وأبوزيد.

ثم أغلق المكالمة في الحال، وأخذ يسير منفعلًا، ربما يطفئ برد الأسكندرية نار قلبه. وصل إلى الكورنيش، فوقف ينظر إلى سواد البحر، ثم تذكر أن عليه أن يتخلص من شريحة الهاتف التي اتصل بشريف الزيني منها. أخرجها من هاتفه، وكسرها، ورماها في البحر الهائج تماما كنفسه الغاضبة.

كانت هذه الخطوة ضرورية، ربما على الأقل يوجه انتباه شريف نحوهما. حتى إن لم يثبت شيئا عليهما، فسيتأخر قليلًا في البحث عنه. الخطوة التالية من الخطة كانت أن بدأ يوسف بالاتصال بمصطفى بصورة مستمرة. دائمًا في وقت متأخر

مـن الليـل. لاحـظ يوسـف حينما كـان يعمـل أن مصطفى دائمًا ما كان التابع وأبو زيد يحركه. قدَّر أنه لذلك هو الحلقة الأضعف في أعدائه.

أول مرة اتصل به يوسف، قال مغيرًا صوته:

- ازيـك يا مصطفى؟ عـامل ايه من بعد ما قتلتم الولدين في الحبس؟ أنا شفتكم يا مصطفى.. أنا عارف كل اللي حصل. أما اشوف كده ممكن اعمل ايه في الموضوع ده، يمكن اتسلى بيكم شوية

رد مصطفى مفزوعًا:

- مين معايا! أنا معرفش انت بتتكلم عن ايه!

- لأ عارف يا مصطفى.

في المكالمة التالية، سأله مصطفى وصوته واضح الارتعاش:

- انت عايز مني ايه؟

- عايزك تبقى عارف اني عارف سرك

أغلق يوسف الخط، وغاب عنه بضعة أيام، كان متأكدًا أن مصطفى فيها يقترب من الانهيار. ما لم يكن متأكدًا منه هو رد فعل أبو زيد. كان يشتري خطًا جديدًا لكل مكالمة، وأحيانا يركب ميكروباصات المحافظات، حذرًا من أن يتتبع أحد مكان بيع الرقم، أو يطلب من أسامة شراء خطوط له، ثم يتخلص من الشريحة بعد كل مكالمة.

مرت عدة أيام، قبل أن يتصل مجددًا..

- ايه يا مصطفى نسيتني ولا ايه؟ لو نسيتني أنا مش هنساك.. ده انت تسليتي يا راجل..

- مين معايا؟.. يا تقول انت مين يا هقفل السكة

- ما تقدرش تقفل يا مصطفى.. انت اللي محتاجني.. قدامك خيار من اتنين.. يا انت.. يا ابو زيد..

- ايه اللي بتقوله ده!

- أبوزيد كان معايا.. سمعني تسجيل لك بتتكلم فيه

عن قتل الولدين. صاحبك اللي انت خايف منه ناوي لو زنقت يرميها عليك لوحدك.. انت شايف ايه؟

كانت نبرة صوت مصطفى تشي بأنه على وشك البكاء وهو يقول:

- انت كداب.. انت مين وعايز ايه؟

- سلم نفسك يا مصطفى، وافضح ابو زيد.. مش احسن ما تلبسها لوحدك ؟

- مينفعش.. مستحيل أعمل كده.. ما اق.....

أغلق يوسف الخط دون أن ينتظر باقي كلام مصطفى. ترى، هل ستؤدي له هذه المكالمات إلى شيء؟ كان مصطفى هشًا أكثر مما تخيل يوسف، حتى إنه - للحظة- أشفق عليه. تخيله الآن يهرول مسرعًا نحو سيده المتحكم فيه، أبو زيد، ليحكى له عن هذا الرعب.

وفي الحقيقة، لم يكن ذلك خيالًا.. استمع أبو زيد

لمصطفى ومضى يفكر..

- ده أكيـد يوسـف وبيشـتغلك. مـاعرفتش صـوته يعني؟

- ويوسف هيعرف ازاي يا ابوزيد ان احنا اللي عملنا كده! ثم إن الرقم ده هو ما يعرفوش

- ما هو ظابط وأكيد له علاقات يا اهبل!

- علاقات ايه وهو هربان!

صاح فيه أبوزيد:

- وطي صوتك يا حمار.. لو حد سمعك انت اللي هتودينا في داهية!

ثم قال هامسًا:

- مافيش حاجة.. ماتصدقش اللي بيتقال واعمل عبيط.. وأنا هجيب لك قرار الموضوع ده

كان عقل الأمين يحاول فهم المسألة، فلا يجد إلا يوسف من يمكنه فعل ذلك. نكسة لن يلعب هذه

اللعبة، ولا مصلحة له أن يلعبها، إلا إذا كان طامعًا في ابتزاز مصطفى، ولو أنه فكر في ذلك فهو غبي. عاد فاستبعد نكسة تمامًا، فهو يدرك أن رقبته في يده، يمكنه في لحظة أن يرسله إلى المشنقة. هذا ليس أبدًا سوى يوسف.

قام أبوزيد من مكانه، واتجه إلى حيث يثق أنه سيجد سمير جدو. إنه ملهى بفندق سيميراميس، الذي تغوي راقصته سمير هذه الأيام. سمعه سمير في برود، ثم سأله في بساطة:

- مصطفى ده.. مهم بالنسبة لنا؟

انقبض صدر أبوزيد، وقد فاجأه الرد..

- مهم ازاي؟ من ناحية ايه يا باشا؟

- يعني محتاجين منه حاجة مهمة؟

- عادي.. بيساعدني، بيزبط الدنيا.. بيعرف يسكت..

نفخ سمير جدو دخان سيجاره وقال له:

- عارف مين كمان بيعرفوا يسكتو؟ الميتين..

نظر له أبوزيد مصدومًا، ولم يرد. فأكمل سمير جدو:

- في شغلنا ده، ماينفعش لو الطقم كله تمام، واحد بس يبقى قلبه ضعيف وبيتهز كده.. واحد زي ده ممكن يلبسنا كلنا في الحيط.. تضمن لي انت انه هيسكت؟

احتقن وجه أبو زيد، وخرج صوته بصعوبة:

- حاضر يا باشا..

- شنطتك أهيه، ماتنساش تاخدها.

وما لم يعرفه الاثنان، أن في نفس هذه اللحظة، كانت المرحلة الثالثة من الخطة تُنفذ.

حياة الصعلكة التي عاشها أوفة لم تكن عديمة الفائدة. اتصل أوفة بحمدي أذية، وطلب منه أن يكلف روسيا بمراقبة مصطفى وأبوزيد. روسيا كان شابًا عاش نفس الحياة الفاسدة التي خاض غمارها

أوفة؛ لكنه لم ينغمس بها، وفقط سار على الحافة الرمادية بين الخير والشر. صنع لنفسه مهنة مبتكرة في ظنه؛ أعطه مالًا وسيراقب أيًا كان من تطلب مراقبته. زبائنه أغلبهم من النساء.. زوجات شككن في خيانة أزواجهن. بعض الزبائن أقل إجرامًا.. عصابات تريد مراقبة بيوت الأثرياء. أقل أجرامًا نعم.. إن النساء إذا غضبن، فاسأل الأزواج عن مصابهم. من أول الفضائح، حتى الهجر بالعيال، حتى سرقة المال.. أو اختفاء الزوج حيث لا يفهم أحد أين ذهب!

لم يسأل روسيا أبدًا «لماذا؟»، فقط أعطه ماله، أو -كما في حالة حمدي أذيه- اطلب منه أن يرد لك معروفًا، وسيأتي لك بكل المعلومات التي لم تحلم بالحصول عليها عن حياة من راقبه.

وروسيا هذا تحصَّل بالفعل على عدد من الأدلة غاية في الأهمية. لقد استطاع ربط أبوزيد بسمير جدو، وصورهم عدد من المرات وهما يتبادلان حقائب مثيرة للشبهة، أو وهو يأتيه للحديث معه

في بعض السهرات المتأخرة.

بدا أن الخطة في طريقها للنجاح، تفاءل يوسف أنه على وشك الإيقاع بهم. لكن جاء ما سيهدد كل هذا، وأكثر..

* * *

في أحد الصباحات، قبع ذلك العم الطامع في أرملة أخيه، منتظرًا في سيارة صديقه أمام العمارة. هذه المرة قرر أن ينتظرها وحدها وهي في طريقها بالصغار للمدارس. هذه المرة لن تجد من ينجدها. أخذ يحكي لصديقه عما حدث في المرتين السابقتين، ففكر رفيق السوء..

- والراجلين دول مين يعني؟ ظهروا فجأة كده؟

- معرفش والله.. أهو حظي الاسود، سكنوا جنبها.. استنى اهم نازلين..

التفت صاحبه نحو بوابة العمارة، فرأى الصغار حول والدتهم. حرك الصديق حاجبيه إعجابًا

بنجلاء، لكن لم يلمحه صاحبه، وفتح كلاهما الباب ناحيته يهمان بالترجل.

- ايه ده استنى كده؟ أهو تاني! معاها زفت منهم.

نظر صديقه نحو يوسف وضيق عينيه وهو يقول:

- الجدع ده شكله مش غريب عليا.

- وأنا كمان شبهت عليه، بس معرفتوش

صاح صديقه فجأة:

- بس يا صاحبي مشاكلك اتحلت.. أنا عرفت ده مين!

- مين؟؟

- ده الظابط الهربان اللي بيجيبوا صوره في الجرايد كل يوم.. بتاع قضية التعذيب!

- نعم! انت متأكد؟!.. تصدق شبهه!

- شبهه ايه، ده هو بعينه.. استنى

التفت إلى المقعد الخلفي، وأخذ جريدة الأمس من عليه، وفتح على أحد الصفحات وقال له:

- أهو.. بص على الصورة.. شيل الشنب بس وغير تسريحة شعره.. هو والله!

نظرا إلى الصورة غير مصدقين.. لقد وقع يوسف بين براثنهما، ولن يجرؤ بعد الآن على المواجهة

- أكيد هوا!.. يوريني بقى هيقف لي ازاي تاني

- هتعمل ايه يا صاحبي؟

رد عليه وهو يخرج محموله:

- هو ايه اللي هعمل ايه؟ هبلغ عنه طبعًا، انت مش شايف مكتوب مكافأة قد ايه كمان، يعني المصلحة مصلحتين

* * *

عاد يوسف مع نجلاء، يسيران متلكئين نحو البيت، بعد أن دخل الأطفال لمدارسهم. أخذا

يتحدثان عن أبنائها ومستقبلهم. كانت نجلاء تجر الحديث شيئًا فشيئا إلى حيث أنهى يوسف الكلام ليلة مرض أيمن. لكن قبل أن تصل إلى ما أرادت، قاطعها رنين هاتفها المحمول.

- آلو..

- أيوة يا نجلاء هانم.. أحب أقول لك مبروك.. الجدع اللي كنتي محتمية فيه طلع مجرم هربان، والبوليس خلاص عرف عنه وهيجيبه من قفاه.. خلي ده درس ليكي عشان تتعلمي..

كانا بالفعل قد وصلا للبناية. بدا الذعر على وجه نجلاء، فسألها يوسف:

- في ايه؟ خير؟

بدت مرتبكة للغاية ولا تدري ماذا تقول..

- لازم تمشوا.. لازم تمشوا..

- ليه؟؟ فيه؟؟

- جـايين! هـييجوا يقبضـوا علـيكم دلوقتـي! بلـغ عنكم!

سمعها يوسف مصدومًا، ولكنه فكر سريعًا، صاح بها:

- بسرعة لازم نحذر أوفة!

جـرى يوسـف، ومـن وراءه نجـلاء نحـو المـنزل، وصـعد السـلالم قـافزًا، ثم أخـذ يـرن جـرس البـاب بعنف. فتح أوفة الباب مذعورًا وهو يسأل:

- ايه؟ فيه ايه؟ ما انت معاك مفتاح يا مجنون

- جايين دلوقتي يا أوفة! لازم نهرب!

جـرى أوفـة للـداخل نحـو غرفتـه ليرتـدي ملابسـه، بينما توقف يوسف لحظة ليلتقط أنفاسه.. انتهى أوفـة فـي لحظـات، ووقفـوا فـي الصـالة يتبـادلون النظرات، لا يدري أيٍ من ثلاثتهم ماذا يقول في هذا الوداع الإجباري السريع..

قالت نجلاء بسرعة:

- أنـا متشـكرة.. كنتـم نعـم الاخـوات، الأيـام اللـي قضتوها هنا، عمري ما هنساها.

نظـر لـها أوفـة بعينٍ دامعة، ولم يجـد ما يـرد بـه.. نظرت له نجلاء بدورها بعينٍ دامعة وقالت له وهي تضحك وتبكي معًا:

- ماتعيطش يا أوفة، ده انت اللي على طول دمك خفـيف وطـيب، بالضـبط كنـت بتفكـرني بأحمـد.. هنتلاقى تاني أكيد، ما تعيطش..

جذب يوسف أوفه وهو يقول:

- لازم ننزل دلوقتي، زمانهم جايين في أي لحظة.

أسرع ثلاثتهم نحو الأسفل. أصرت نجلاء أن تأتي معـهما، وقـالت إن وجودهـا يقلـل مـن لفـت النظر إليهما في الشارع. كانت حجتها مقنعة، فسكتا عن الاعتراض، لكن يوسف قال لها في حزم صارم:

- لو حصل أي حاجة.. أي شك يا نجلاء.. تبعدي عننا فورًا، ولا كأنك تعرفينا.. مفهوم؟

أومأت برأسها موافقة..

- من غير ما تقول.. حتى لو مش عايزة أسيبكم، لازم هاعمل حساب عيالي يا يوسف

ابتعدوا عن العمارة بسرعة، بينما تصاعد صوت سرينات الشرطة وهي تقترب.. وبعد عدة شوارع، توقف أوفة وقال:

- والعمل دلوقتي؟ على فين العزم؟

- لازم نسيب اسكندرية..

- نسيبها على فين؟ لينا مكان تاني؟

قالت لهم نجلاء:

- ممكن أدبر لكم أنا حاجة.

ثم حكت لهم عن شاب كان يعمل معها في المطعم، اسمه مينا، كان يحضر الطعام من المخازن. ثم حدث أن اتهمه زملاؤه بالسرقة، وكانت هي الوحيدة التي وقفت معه، وقالت إن أرقام دفاترها

تثبت أن العهدة لم تُسرق منه هو. لكن للأسف تم طرده رغم ذلك، وكانت هي الوحيدة التي فكرت بمساعدته ماديًا لعدة أشهر، حتى وجد عملًا آخر. قالت لهم:

- هو عنده عربية نقل أكل، وبينزل بيها بلدهم في الصعيد كل شهر، أنا ممكن أكلمه ياخدكم فيها.. هو أكيد مش هيرفض ليا طلب.

وبالفعل، اتصلت نجلاء بمينا، الذي قال لها إنه على وشك أن ينطلق نحو قريته خلال ساعتين. ذهبوا للقائه، وأخبرته نجلاء أنهما من أقاربها وعليهما ثأر، وهما هاربان منه. كان مينا شابًا صغير السن، ناعم الملامح، مبتسمًا دومًا. فتح لهما باب سيارته الخلفي على ثلاجة الأغذية، وقال لهما:

- معلش بقى الجو برد، كويس انكم متقلين في اللبس.

طمأن نجلاء أنه سيعتني بهم، قائلًا:

- انتي جميلك طول عمره هيفضل فوق راسي،

اتطمني عليهم اللي من طرفك أشيله في عنيا يا ست الناس.

كان صادقًا.. وثق يوسف وأوفة في صدقه حين رأيا ما في الثلاجة. كان من الواضح أنه لم يكن جاهزًا للسفر، وإنما سيخرج إلى هذه الرحلة الطويلة إكرامًا لخاطر نجلاء. ودعتهما عينيها وقلبها يدعو لهما بالنجاة،، وانطلق بهما مينا نحو مخبأ جديد.

* * *

كانت الثلاجة باردة، وما كان هذا الشتاء القارص ينقصه البرد. الرحلة طويلة، من أقصى شمال مصر إلى جنوبها، حيث الصعيد الذي يكاد لا يشبه ما يعرفانه عن مصر في شيء. استمرت الرحلة بطول اليوم، حتى ظن يوسف وأوفة أنها لن تنهي، وقد بدءا يرتعشان ويشعران أن عضلاتهما تتكسر وعظامهما تئن من وطأة البرودة. وأخيرًا، في ساعة متأخرة من الليل، توقفت الشاحنة، وفتح لهما مينا الباب على ظلام حالك. نزلا من السيارة بصعوبة، وكأن مفاصلهما قد تيبست، ليجدا نفسيهما في منطقة ريفية خضراء، أمام بيت صغير من الطوب اللبن. قال مينا:

- نورتونا يا رجالة.. أنا مينا، اسم الكريم ايه؟.

- فؤاد..

- يوسف..

- عاشت الأسامي.. اتفضلوا المطرح مطرحكم.. هحضر لكم فرشة في أوضتي، وأنا هنام مع أخويا

في اوضته.

ابتسم له يوسف قائلًا:

- كتر خيرك يا مينا.

- خير ايه، ده ولا أي حاجة للست نجلاء تسد دينها اللي في رقبتي. قرايب ست نجلاء على راسي

أمضى يوسف وأوفة الليلة في غرفة مينا الصغيرة، على فرشة خفيفة صنعها لهم من بعض البطاطين. استيقظ يوسف عند الفجر على أصوات الطيور، وظل جالسًا يفكر في خطوته القادمة، حتى استيقظ أوفة.

- صباح الفل يا يوسف.

- صباح الخير..

- مالك بتفكر في ايه؟

- بفكر هنعمل ايه بعد كده..

- ولا حاجة.. هنستنى لحد ما روسيا يعرفنا وصل

لإيه.

كان أوفة محقًا. ليس في إمكانهما الآن فعل شيء، وليس من العقل أن يتكدرا بالقلق والتفكير في لا شيء، وأفضل من يفعلانه حتى يصلهما خبر جديد، هو أن يمضيا يومهما الأول في القرية البسيطة يتجولان في أنحائها ويستكشفانها. كانت قرية مينا فقيرة للغاية. لف بهما مينا قريته الصغيرة وحقولها، وحكى لهما عن وقوف نجلاء معه، وعن عمله في الإسكندرية، ثم عادوا إلى البيت، حيث جلسوا حول الطبلية يتناولون الإفطار الذي جهزته أم مينا، من خبز شمسي وجبن قديم وعسل أسود، ثم تناولا الشاي مع مينا، ووالده وأخيه الصغير مايكل. لم يسألهما أبو مينا عن شيء، وبدا أن مينا قد نبه على أهل بيته أن يكفُّوا فضولهم عن ضيوفه. حتى حل الليل، ولا يزالون يتحدثون في أمور خفيفة عامة عن الحياة في القرية والمدينة، ثم دخلوا لينامو مرة أخرى.

قال يوسف لأوفة غير راض:

- اليوم عدا ولا استفدنا بيه.

- ماتخافش.. هتجيلنا أخبار كويسة قريب.

هـذه الليلـة لـم تمـض فـي سـلام كسـابقتها. لـم يستيقظ يوسف على أصوات العصافير، بل على أصوات صياح أهالي القرية:

- حرييييق.. حرييييق.. دار خورشيد بيولع..

قام يوسف وأوفة من نومهما مذعورين..

- فيه ايه؟..

- علمي علمك.. باين في حريقة

- طب قوم نشوف

خرجا من الغرفة، فوجدا مايكل ومينا يسرعان في ارتداء جلبابيهما ويتجهان للخروج مسرعين. جرى أربعتهم في وسط الليل، يتقدمهم مينا ومايكل، نحو مكان الحريق. وطوال الطريق، أخذ يوسف يفكر.. من هو خورشيد، وما الذي حدث له. حين

وصلوا إلى المكان، فوجئ يوسف بمنزلٍ ضخم للغاية.. أضعاف حجم أيٍ من الدور الأخرى في القرية. لكن الدار لم يكن يشتعل ذاته، بل أمسكت النيران بغرفة أمامه، وجزء كبير من سوره.. وأمامها، كان شيخٌ كبير يكافح كي يتنفس وهو يحاول إطفاء النيران. صاح مايكل وهو يبعده:

- عم ضاحي ابعد انت مافكش صحة..

نشط الأربعة في محاولة لإطفاء الحريق، بينما وقف أهالي القرية من بعيد يراقبون، ما أثار تعجب يوسف، لكنه لم يجد وقتًا ليسأل. ظلوا يكافحون النيران ساعتين، حتى انطفأت أخيرًا. حينها، ألقى مايكل بنفسه على الأرض منهكًا، ونظر نحو عم ضاحي وسأله:

- مين عمل كده؟ أكيد حناطة ورجالته!

أومأ عم ضاحي وهو يكح، فصاح مايكل:

- عايزين يموتوه ولاد الكلب!

وصاح في أهالي القرية الواقفين من حوله:

- هتفضلوا ساكتين لحد متى!

وضع مينا يده على كتفه مهدئًا، ونظر للسماء قائلًا:

- الشمس بتطلع.. مش هييجوا تاني دلوقتي.. يلا نروح..

والتفت إلى الشيخ ضاحي وقال:

- تعالى معانا يا عم ضاحي تشرب لك كوباية ينسون وتاكل لك لقمة، ونبقى نيجي بعدها سوا نشوف الأوضة حصل لها ايه..

لم يقاوم الرجل.. أخذوه وعادوا به إلى المنزل، بينما أوفة ويوسف لا يفهمون ما حصل حتى الآن. قرأ مينا هذا في وجوههم، فبدأ بالحكي:

- اللي انتم شفتوه ده.. وأكيد يعني أخدتو بالكم انه مش بيت حد في البلد.. ده دار قديمة.. أثر.. كان بتاع خورشيد باشا. وعم ضاحي من ساعة ما وعينا وهو غفير الدار

أكمل مايكل:

- الحكايــة القـديمة اللـي سـمعناها مـن جـدودنا وأهـالينا ان تحـت الـدار مـدفون كـنز كبـير، دهـب وفضة وحاجات ياما. ناس كتير مصدقة ونفسها تجيب الدار أرض وتنبش تطلع الحلم من تحته.. بس البيت بقرار الحكومة بقى أثري.. يعني بقى عـهدة حكوميـة.. ورغـم كـده بقى الحكومة مش حاطة حراسة عليه غير عم ضاحي الغفير.. طبعا كــلام فاضــي، والنـاس مسـتخفة بعـم ضـاحي، والمكان مطمع مهابيل كتير زي حناطة الخسيس اللـي من سنين بيحاول يخش يهد البيت عشان يجيب الدهب من تحته، وماحدش واقف له غير عم ضاحي، اللي زهق من أنه يبلغ الحكومة، وما بيسألوش عنه..

سألهم يوسف:

- مين حناطة؟

- حناطة ده من مطاريد الجبل، نزل علينا من كام

سنة وجمع كل أندال البلد، وعمل منهم عصابة طايحين في الخلق ومحدش عارف يقف لهم، وكله خايف.. اللي بيقف قدامه ديته رصاصة..أحرجت يوسف نظرة أوفة له بطرف عينه، والتي حملت من التهكم ما لم يحتمل. هم بسؤال مينا، لكنه أشار له بيده بمعنى أنه يعرف مسبقا ما سيسأل عنه..

- طلبنا مديرية الأمن كتير، بس محدش مهتم. احنا هنا في الصعيد حضرتك مش القاهرة ولا اسكندرية

تكلم عم ضاحي أخيرًا:

- آني صحيت على صوت ناس برة الأوضة. قمت لقيتهم بيكبوا جاز عالباب، زعقت فيهم، قاموا رامين عليه ولعة وضربوا نار وطلعوا يجروا..

ثم بدا عليه الضياع وهو يقول:

- دا اني لساتي قابض المرتب.. كله كان في الأوضة.. مش عارف هعيش ازاي..

قال له مايكل:

- عيب عليك يا عم ضاحي..

قال يوسف:

- عشان كده أهالي البلد وقفوا يتفرجوا علينا، ماحدش حاول يساعد!

- كله عارف ان حناطة اللي عينه على دهب البيت، وماحدش عايز يقف قدامه. يمكن بيحلموا هم كمان يسيب لهم حتة وللا ينسى ياخد حاجة يلتقوها هم بعده

فكر يوسف في نفسه.. ألو كان ما زال ضابطًا، أكان يقدر على فعل شيء؟ إنه الآن مكبل اليدين كأي فرد منهم، لكن هل ضابط القرية يملك شيئا في مواجهة هذا النأي والعزلة والفقر في هذه الأنحاء؟! لقد سمع كثيرًا من رفاقه الذين عملوا لفترة بالصعيد، ولكن ليس من سمع كمن رأى، وها هو قد رأى ما لا يسر.

* * *

كان حناطة ساهرًا طول اليوم مع رجاله، يدخنون الأفيون في مخبئهم بالجبل حتى حل الصباح. مع شقشقة الشمس، وصل واحد من رجاله يخبره أن مايكل ومينا ومعهما غريبين أطفأوا الحريق بغرفة الخفير ضاحي. استشاط حناطة غضبًا، وقام من مجلسه، ليظهر طوله الفارع، وقال:

- ما اتخلقش اللي يقف قدام القطر. مش مايكل ابن جميل اللي هيقف قدامي.

صاح في رجاله أن يحملوا سلاحهم، وأسرع إلى حصانه، تلحق به عصبته متجهين نحو القرية.

* * *

كان الكل مجتمعين يتناولون الإفطار حول الطبلية في دار جميل، أهل البيت ويوسف وأوفة ومعهم ضاحي، حينما فاجأهم طرق عنيف على الباب، لم يجدوا الوقت ليهموا من مجلسهم ليفتحوه، فقد سبقهم رجال حناطة فكسروه، وامتلأ الدار بالرجال

المسلحين. دخل زعيمهم بعدهم، فدار في الجالسين ببصره، ثم قال:

- بيقولوا في المثل: من خرج من داره اتقل مقداره. حناطة بقى بيقول لك يا جميل.. اللي هيخرج من داره هيرُد على قبره. ماحدش بيقف قدام حناطة ويعيش.

تجمد الجميع في رهبة من المشهد، ثم كان جميل أول من استطاع الكلام:

- مالك يا حناطة.. عم ضاحي عمل لك ايه عشان تموته؟.. ما كفَّاك انت جري ورا حكايات قديمة مالهاش أصل..

- مش عايز يموت يسيب دار خورشيد ويشوف له مطرح تاني!

- دي حياته وأكل عيشه.. والكنز ده تخريفة عيب عليك تصدقها

ضرب حناطة الأرض بكعب سلاحه، وصاح في

جميل:

- ما اتولدش عالأرض اللي يقول لحناطة عيب يا جميل الكلب

احمر وجه جميل غضبا من إهانته أمام عياله، وهم مينا بالنهوض، فأمسك يوسف ذراعه يجذبه ويبقيه في مكانه، وفي هدوء قام هو من مكانه، وتقدم مه حناطة ووقف أمامه. كان يوسف الوحيد في المكان الذي يماثل حناطة الطول، ونظر له وجهًا لوجه قائلًا:

- اطلع بره يا حناطة.. لا الدار دارك، ولا المطرح مطرحك، ولا حد عايز يضايفك.

اتسعت عينا حناطة دهشة من هذا الغريب الجريء، وشهق أحد رجاله، بينما أسندت أم مينا رأسها إلى الحائط، في الركن الذي تقف فيه تراقب ما يحدث.

- انت مين انت.. انت قد انك تكلم حناطة كده؟

اقترب منه يوسف أكثر، وقال:

- أنا قد اني أهددك انك لو جيت هنا تاني هتندم ندم عمرك كله.

انفعل حناطة.. وأخرج من جيب جلبابه مسدسًا، فسارع يوسف بإمساك يده وانتزاعه منه وتوجيهه نحو رأسه، فصرخت أم مينا، وارتفعت همهمات الجميع.

- اطلع بره يا حناطة لو خايف على عمرك. رجالتك اللي متحامي فيهم كلهم مش هيسبقوا الرصاصة.

قال له حناطة بنظرة مرعبة:

- انت دخلت نفسك حرب منتاش قدها.. يا حضرة الظابط.

فوجئ يوسف.. وقال بحذر:

- نعم؟!

- أنا بشم ريحتكم.. الظابط ريحته تتشم من ألف

ميل.

- طب اطلع قبل ما تشم ريحة البارود..

وانصرف حناطة وهو يغلي غضبًا، ويفكر في الانتقام.

اقترب أوفة من يوسف وقال له:

- متبقاش حامي كده يا يوسف.. انت مابقتش ظابط خلاص.. انت هربان ومش قد الطلعات الجامدة دي!

ولكن لم يبد أن يوسف سمعه.

* * *

أمضى يوسف وأوفة اليوم التالي في اتصالات متكررة مع أسامة وحمدي أذية، ليعرفا إلى أين وصل بهم الحال. صار معهما ما يثبت علاقة مصطفى وأبوزيد بسمير جدو، لكن لم يكن هذا ليكفي لتبرئة ذمة يوسف. وعند العصر، بينما يتباحثان في الخطوة القادمة، شق هدوء الطبيعة

صوت صبي يجري ويصيح:

- الحقوا عم ضاحي.. الحقوا عم ضاحي..

جرى الجميع نحو الباب وسألوا الغلام:

- فيه ايه؟

- الحقوه على القهوة!

جرى الشباب الأربعة نحو القهوة البسيطة التي تتوسط القرية، ويلتقي فيها أهلها بعد العمل في الغيط، ليرتاحوا ويتسامروا ويشربوا الشاي. وجدوا الجمع ملتفًا حول ضاحي فاقد الوعي، ورأسه تنزف.. جرى مايكل عليه وهو يصيح:

- عم ضاحي.. ايه اللي حصلك؟ عملوا فيك ايه ولاد الكلب!

نظر يوسف للواقفين وسألهم:

- دي عملة حناطة مش كده؟

لم يرد عليه أحد، فأدرك أنه على صواب. صاح بهم:

- وبعدين؟ هتفضلوا كده لحد امتى؟ سكوتكم هو اللي مقويه عليكم.. مافيكمش راجل يقف قدامه؟

تحاشي الجميع نظراته ولم يرد أحد.

- فوقوا بقى.. سكوتكم هيذلكم طول حياتكم..

خرج صوت من الجموع يخبره:

- انت بتكلم أموات.

خرج من الجمع شاب ممتلئ الجسم، يرتدي نظارة وسترة ثقيلة. نظر له يوسف لا يعرفه، فهمس له مينا أن هذا محمود، مسؤول قصر الثقافة بالمركز. أكمل محمود:

- بقالي سنين بقول لهم يقفوا للي جاي يدمر تراثهم، ويحرق تاريخهم، ويسرق ثروتهم، بس كله خايف.

صاح يوسف:

- أنا مش خايف.. ومن النهاردة هقضي الحراسة مع

عم ضاحي، والدكر يقرب تاني..

تقدم محمود وصاح:

- وأنا معاك، والجدع بييجي..

تقدم الأخوان مينا ومايكل متابعين:

- واحنا كمان، من النهاردة هنحمي دار خورشيد زي دارنا.

قال محمود:

- أنا كلمت وزارة الآثار، وهيجوا يستلموا المكان خلال أيام. عايزين نحافظ عليه بس اليومين الجايين دول. مفيش حد كمان؟

وبدا أن العدد المتزايد والصوت المتصاعد ضد طغيان حناطة شجع بعض الشباب، فتقدم ستة آخرون من شباب القرية يتطوعون بالمشاركة في حماية دار خورشيد ومواجهة حناطة. أخذ محمود يوسف في جانب وقال له:

- أنا معرفش انت مين، بس انت جيت من السما. حناطة هيموت على آثار سرداب بيت خورشيد بك الأثـري، وفيـه وراه سـمسار آثـار كبـير بيشـجعه وهيديه تمويل. لو هتعملوا حاجة، جهزوا نفسكم بسلاح كويس، لأن الموضوع مش هيكون سهل.

هز يوسـف رأسـه متفـهمًا، وتسـاءل بـداخله لماذا يدخل نفسه في هذه المعركة، بينما صراعه الخاص لم ينته. هل اشتاق للصراع المفتوح المباشر، الذي يمكن أن ينهيه بقوة السلاح بدون انتظار؟

* * *

فـي الفتـرة التاليـة، بعـد أن نظـم يوسـف نوبـات حراسـة للمكـان، ووزع بعـض السـلاح مـن أهـالي القرية على الشباب، وأخبرهم كيف يتصرفون في حالـة الـهجوم، وكـيف ينبـهون الجمـيع ليـأتوا للمساندة، تفرغ يوسف لخطته في إرباك الحلقة الأضعف، مصطفى، لعله ينكسر ويقع في الخطأ.

عـاد يوسـف يتصـل بمصـطفى ليـلًا، وأحيـانًا في

الصباح الباكر، وينبئه بتحركاته وتحركات أبوزيد، كما يخبره به حمدي الأذية عن روسيا، ويؤكد له أنه واقع في شباك أفخاخه، ولن يفلت منه. تحت هـذا الضـغط المتتـالي، انكسـر مصـطفى أخـيرًا، وذهب لأبوزيد منهارًا يؤكد له:

- احنا انكشفنا يا أبوزيد! مفيش حل غير اننا لازم نهرب حالًا!

- ايه اللي بتقوله ده يا جدع انت! نهرب فين!

- بيتصـلوا عليـا كـل يـوم، بيراقبونـا، عـارفين كـل تحركاتنا!

- هم مين!

- مش عارف يا أبوزيد هم مين!

- انت اتجننت خلاص يا مصطفى! روح البيت نام لك شوية!

- مش عارف أنام يا جدع! مش عارف!

تركه أبوزيد وذهب لسمير جدو يحكي له ما حدث. سأله ماذا يرى، وهل من هذا خوف؟ أدرك سمير جدو موطن الخطر الحقيقي فأمره مجددًا بأن يتخلص من مصطفى. هذه المرة اقتنع أبوزيد، تحت خوفه من الانكشاف بسبب جبن مصطفى.

* * *

تقدم أبوزيد إلى داخل قهوة شعبية ضيقة متسخة، في حارة لم يسمع عنها أحد من قبل، وجلس على كرسي بجانب الباب. انتظر دقيقة أو اثنتين، قبل أن ينتقل أحدهم للجلوس بجانبه، ضخم الجثة ذو وجه مشوه بالندوب. قال له:

- منور يا بيه.

- بنورك يا خويا..

- أؤمر..

ناوله أبوزيد ظرفًا من تحت الطاولة، وقال له:

- نص المبلغ دلوقتي.. نصه بعدها..

- تعليمة ولا أخلص عليه؟

- خلص عليه طول متسبش فرصة..

- أسهل حاجة..

- وحاجة كمان..

- ايه؟

- الفتـرة اللـي بعـدها أحسـن لـك تختفـي عشـان هيدوروا عليك..

- وهيعرفوا منين إني اللي عملتها؟

- أنـا بقـول لـك أهـو إنـهم هـيعرفوا مـن دلوقتـي.. فاخلع شوية لحد ما الدنيا تروق وهقول لك ينفع ترجع امتى..

- كده يبقى تزود التمن، كله بفلوسه واللي معهوش ميلزموش..

نظر له أبوزيد شذرًا، ثم قال:

- أكيد.. بس متزودهاش عشان وحش عليك..

- الحق حق.. يلا هتكل أنا، وهتسمع خبره كمان كام يوم..

ثم قام الرجل وابتعد، خارجًا من باب خلفي صغير.. بينما ظل أبوزيد جالسًا، وطلب واحد شاي.

* * *

في اليوم التالي وبينما كان مصطفى عائدًا لبيته، أوقفه أحدهم قائلًا:

- الساعة كام لو سمحت؟

بينما نظر مصطفى لساعته، شعر فجأة بشيء ضخم يخترق بطنه. نظر مذعورًا فوجد الطعنة الثانية تخترق صدره، ثم أظلم كل شيء.

* * *

استيقظ الصباح التالي يوسف على صوت أوفة يخبره:

- اصحى يا يوسف فيه أخبار مهمة..

قام يوسف مكانه وسأله:

- خير فيه ايه؟

- جوز خالتي اتصل بيا دلوقتي، وبيقولي مصطفى مات.

أفاق يوسف من نعاسه وصاح مصدومًا:

- نعم؟ ازاي؟

- بيقولوا مسجل خطر كان رايح يقبض عليه موته.

قال يوسف مستنكرًا:

- مصطفى مين اللي يروح يقبض على مسجل خطر! ده جبان!

- ما هو ده اللي جوز خالتي بيقوله بالضبط! بص بعت لي الصور دي على الموبايل.

نظر يوسف في جهاز صغير، ليرى صور ليلية

ضعيفة الجودة، لكنه بالفعل ميز أبوزيد جالسًا مع أحدهم على طاولة أحد المقاهي، ويده تتحرك تحت الطاولة. قال له أوفة:

- روسيا بيقول ان الجدع ده هو نفسه اللي بيتقال انه قتل مصطفى وهو رايح يقبض عليه.

صمت يوسف لحظة مفكرًا، فسأله أوفة:

- دي كده حاجة حلوة ولا وحشة؟

- الاتنين.. معناها اننا كنا قربنا منهم وحسوا بالخطر، بس دلوقتي اتخلصوا من الحلقة الأضعف، ومهمتنا بقت أصعب..

- بس الصور دي ممكن نخلص بيها من أبوزيد.

- بس أبوزيد مش هو بس المشكلة، ولا ده هيرجع لي براءتي.

- والعمل؟

- خلينا نفكر تاني في خطة جديدة، ومين يعرف

ايه هيجرى تاني الأيام الجاية.

* * *

استيقظ يوسف على أصوات ديوك الفجر، فظل محدقًا في السقف من فوقه، شاردًا في حاله، يتساءل متى سينتهي كل هذا. أغمض عينيه وفكر قليلًا في كنزي، خطيبته اللدودة، التي لم يدرك سوى الآن كم كان يحبها. كل ما كان بينهم من مشاحنات وشجار أحيانًا، يفتقده الآن جدًا. وعد نفسه أن لو انتهت هذه المحنة سيتغير لأجلها. ربما كان هو سبب عصبيتها الدائمة معه، لإهماله علاقتهما من بعد أن تم نقله. فكر في كم يود تغيير الكثير في حياته. الكثير مما كان يملك، لم يدرك سوى الآن قيمته، بعد ان ابتعد عنه كل هذا البعد.

رن الهاتف المحمول بجانبه، نظر للرقم فوجده رقم أسامة كما حفظه. تفاءل، لعل هذه المرة ستأتيه المعلومة التي ستنهي كل هذا.

- أيوة يا أسامة معاك.. خير فيه جديد؟

- يوسف.. فيه اخبار مش كويسة، وأنا مكنتش عارف انت المفروض تعرفها ولا لأ وانت بعيد كده، بس أنا عارفك وانت كنت هتعوز تبقى عارف..

سقط قلب يوسف في قدميه، سأله والقلق يعتصره:

- خير يا أسامة فيه ايه؟

- طنط راضية والدتك في المستشفى، تعبت جامد من اسبوع ودخلت، ومن ساعتها محجوزة، ولسه مش عارفين مالها..

لم يجد يوسف ما يرد به. لأول مرة ارتطم به شعور العجز بهذه القوة. أمه في المستشفى منذ أسبوع، ولم يكن بجانبها. لم يكن يعرف حتى!

- يوسف.. انت معايا؟ اتطمن احنا كلنا ولادها وجنبها، وهي هتقوم بالسلامة متقلقش.. بس حسيت ان من حقك تعرف

أفاق أخيرًا يوسف فرد:

- شكرًا يا أسامة انك قلت لي.. طمنني عليها على طول..

- أكيد يا يوسف من غير ما تقول..

أغلق يوسف الخط وأخذ يفكر. أي حياة يحياها الآن، طريد خائف محروم من أبسط حقوقه، محروم من عائلته، وهو بريء. هل ينتظر فقط الفرج من السماء، ويظل هكذا جالسًا؟

استيقظ أخيرًا أوفة، فجلس معه يوسف وحكى له ما دار في المكالمة، سأله أوفة:

- وبعدين؟

- أنا لازم أروح أشوفها يا أوفة.. دي ست كبيرة، ومش عارف لو هيكون ليا فرصة تانية أشوفها..

- ماتقولش كده يا يوسف، هتقوم بالسلامة ان شاء الله.. بس لو هتعمل أي حاجة أنا معاك..

- مش هنعرف نعمل حاجة لوحدنا.. هنحتاج مساعدة..

خرج يوسف وأوفة من الغرفة، ونادا على مايكل ومينا، وجلسا معهما بالخارج في الغيط، وقال لهم

يوسف:

- بصوا.. انتم الاتنين من أجدع الناس اللي شفتها في حياتي، وعشان كده هثق فيكم بسر مهم جدًا.. أنا هأتمنكم على حياتي.

وحكى لهما يوسف حكايته وأوفة كاملة، بكل ما جرى لهما وما واجهاه، وأراهما الصور التي يملكانها لمصطفى وأبوزيد وسمير جدو. وأنصت له الشابان في تركيز حتى انتهى، ثم قال مايكل:

- احنا معاك في أي حاجة.. انت جدع ووقفت قدام حناطة وانت مالكش صالح في الموضوع، واحنا هنرد لك الجميل.

أتبع مينا:

- بالضبط.. أنا عارف هنعمل ايه.. احنا هنوديك تشوف أمك.

دخل مينا إلى الدار، وعاد لهم بصندوق قائلًا:

- أكيد المستشفى هتكون متراقبة. هتحتاج ده.

فتح الصندوق، ليجدوا بداخله زيًا لقس، وقال له:

- مش هيشكوا في رجل دين. والزي الشريف ده يتشرف إنه يساعد واحد بريء يقابل أمه.

أومأ له يوسف عاجزًا عن الكلام، ولكن امتلأت عيناه بنظرة عرفان أبلغ من الحروف.

* * *

في الطريق للقاهرة، اتصل يوسف بأسامة، وأخبره بما سيحدث، فأبدى له أسامة قلقه، وقال له:

- متأكد يا يوسف من الموضوع ده؟ احنا جنب طنط ومافيش قلق عليها.

- أمي يا أسامة، مافيش عندي اختيار تاني. قابلني قدام المستشفى

وبالفعل، وصل يوسف وأوفة ومينا إلى المستشفى عند العصر. لكن مينا لم يجد مكانًا ليركن الشاحنة الكبيرة، فاضطر لإنزال يوسف، بعد أن اتفقوا أن

يوسف وأسامة سيدخلون، بينما ينتظر أوفة ومينا في الخارج احتياطًا لأي طارئ، ليسارعا بإخبارهما. كان يوسف قد ارتدى ملابس القس، وأتى له أسامة بلحية وشارب وضعهما على وجهه، ثم ارتدى نظارة مزيفة، وتقدما نحو المستشفى. كان أسامة يعرف مكان الحجرة، فمشى أمام يوسف ببضع خطوات، وصعدا مباشرة إليها. لقد زار أسامة والدة صديقه عدة مرات، فخشي أن يتعرفه عساكر الحراسة فيفتضح أمر يوسف. وكما توقع أسامة وجدا عند باب الحجرة حراسة أمنية، فارتبكا للحظة، وأكملا طريقهما حتى انحنيا إلى ممر آخر غير مكشوف من الحرس، وانتظر أسامة يوسف، وقال له:

- مش هينفع يا يوسف، انت شفت بنفسك اهوه.. كويس انهم ماخدوش بالهم مني، الله يخليك بلاش

كان يوسف يدور بعينيه في المكان حوله، ثم رد على صاحبه الوفي مشيرًا نحو مخزن للغسيل:

- بص، أنا هستنى هنا.. بابا أكيد هتلاقيه جوة، ودخل انت وخليه ييجيلي.. بس ما تخليش أمي تحس بحاجة

- تمام..

وبالفعل، تأكد يوسف أن أحدًا لا ينظر نحوه، وانسل داخل الغرفة الضيقة المظلمة، حيث انتظر فيها قرابة ربع الساعة يقتله التوتر، والتفكير في احتمالية نجاح هذه الخطة المتهورة. وفجأة، انفتح الباب، ودلف والده. مرت لحظات والأب لا يرى من الظلام، بينما وقف يوسف متجمدًا لا يصدق أنه يراه. نادى هامسًا في حذر:

- يوسف..؟

أسرع يوسف إليه يحتضنه، بينما أخذ والده يردد في همس «يوسف.. يوسف.. ابني..»، وكاد الاثنان يبكيان، لولا أنا تمالك يوسف نفسه لضيق الوقت وسأله:

- ايه يا بابا، ماما مالها..

- تعبانة يا يوسف، الكلى تعبانة عندها وبيقولوا المرة دي هتحتاج زراعة، ماعادتش متحملة الغسيل..

- ومستنيين ايه؟

نظر والده للأرض وقال:

- لسه بنجمع المبلغ.

- انت بتهزر يا بابا! فلوس ايه! احنا معندناش حاجة أغلى منها!

- هجيب منين يا بني؟ بحاول والله عمال أبيع كل حاجة عندنا..

- أنا كنت عامل لك توكيل مش كده؟

- أيوة.

- خلاص بيع الشقة بتاعتي

- شقتك!.. ازاي يا بني دي اللي هتتجوز فيها!

- يا بابا احنا فين والجواز فين، مش لما نشوف هخش السجن وللا لأ.. الأهم دلوقتي ماما

- حتى لو جبنا الفلوس دلوقتي، هنحتاج وقت على ما نلاقي ليها متبرع، فخلي موضوع الشقة ده دلوقت..

- متبرع مين.. أنا اللي هتبرع لها أكيد. ايه المطلوب علشان اتبرع لها؟

كان أبوه ذاهلًا، لا يدري كيف يمكن أن يتم ما يقوله يوسف، مع كل الظروف المحيطة..

- ها يا بابا، ايه المطلوب فهمني علشان ألحق أتصرف

- مافيش يابني أول حاجة عينة دم، يشوفوا تنفع تتبرع لها وللا لأ

- هبعت لك عينة دم مني مع أسامة، عشان تعملوا التحليلات وتتأكدوا اني مطابق. هاجي لكم يا بابا، حتى لو دي آخر حاجة أعملها في حياتي.

- بس..

- مفيش بس يا بابا.. يلا عشان ما حدش ياخد باله.

فتح الرجل باب الغرفة، وخرج منها عائدًا لغرفة زوجته، ثم تبعه يوسف عائدًا من الاتجاه الذي جاء منه.

لكن هناك – في آخر الممر – وقف العقيد شريف الزيني، الذي كان يتناقش مع نهى نورالدين، التي كانت تزعجه كثيرًا مؤخرًا بمحاولة أن تقتنص منه معلومة عن تطورات القضية. وبينما كان يحاول أن يتفاداها، لمح يوسف وهو يسير وراء والده. ترك الحديث معها وتأمل ذلك القس ذو البنية الرياضية القوية، القادم نحوه، فثار في صدره شك.. الطول، والحجم، وكونه يسير وراء والد يوسف.. أثار كل هذا حسه البوليسي. أحس يوسف بنظرة شريف، فتسارعت دقات قلبه، لكنه سار نحوه بثقة، حتى مر بجانبه، وبدا أنه سيتخطاه بسلام، ولكن شريف الزيني مده يده نحو فجأة وهو يقول:

- لحظة واحدة يا ابونا!

وبسرعة البرق، دفع يوسف شريف الزيني أرضًا، وانطلق يجري للأسفل بأسرع ما يمكنه. قفز شريف واقفا، ونادى بأعلى صوته على الحراسة ليلحقوا به، بينما اندفع يلاحقه في ممرات المستشفى. تقافز يوسف على السلالم، وأسرع يجرى نحو الباب، فرآه من بعيد أوفة الذي صاح في أسامة:

- عربيتك بسرعة، هنجري!

أدار أسامة عربته، في اللحظة التي وصل فيها يوسف إلى الشارع، ففتح له أوفة الباب، فقفز فيها وقبل حتى أن يغلق بابها، انطلق أسامة بالسيارة مسرعًا، ولم يلحق العقيد شريف أن يلمحها، وابتلعتهم شوارع القاهرة.

* * *

ما لم يكن يوسف يعلمه في هذه الفترة، أن شريف الزيني اتبع نصيحته فعلًا، وبدأ بمراقبة أبوزيد عن كثب، خصوصًا بعد ما جرى لمصطفى، الذي مات فداءً للواجب، ولم يكن على ذلك شاهد سوى أبوزيد.

استدعى شريف الزيني أبوزيد لمكتبه، فأصر أبوزيد على روايته السابقة، وأنه لا يعلم أكثر من ذلك. لم تكن علاقته بالضابط الهارب تكفي ليكوِّن عنه أي أفكار، أو يعلم إلى أين فر.

- يا فندم أنا مجرد أمين.. حضرة الرائد ما كانش هيتصاحب عليا يعني

- طب احكي لي تاني كده اللي حصل مع مصطفى.

- سعادتك أنا والله قلت كل اللي أعرفه كام مرة!.. مصطفى كان رايح يقبض على مسجل خطر اسمه ميعا، واستشهد وهو بيحاول يقبض عليه، الله يرحمه.

- كان رايح يقبض عليه بتهمة ايه؟

- ميعا عليه أحكام كتير يا باشا.

- واشمعنى دلوقتي راح يقبض عليه؟ مين اداه الأمر؟

- معرفش يا باشا والله، أنا مجرد أمين زيي زيه بننفذ الأوامر.

- خلاص يا أبوزيد، اتفضل.

خرج أبوزيد، وظل شريف الزيني يفكر. هناك أمر ما غير منطقي في هذه القصة، لكنه لا يقدر على تحديد ما هو. ربما عليه أن يشدد مراقبة هذا الأبوزيد. ربما لم يكن يوسف المتهم الوحيد. يوسف.. ذلك اللعين، الذي تتبع رقمه الذي اتصل به ليخبره بمراقبة الأمينين، فوجد المكالمة قد صدرت من الإسكندرية، ثم تلاها أن جاء البلاغ من الاسكندرية بتواجده في أحد الشقق المفروشة، لكنه هرب قبل المداهمة. الآن يراه في القاهرة، وبمنتهى الجرأة يأتي لزيارة أمه، ويكاد يمسك به، ولكن يفلت منه. هذا اليوسف كسراب، كلما اقترب

منه تبخر.

في الخارج، سار أبوزيد قلقًا. الخناق يضيق عليه، ويبدو أن المباحث تشك فيه الآن. ربما عليه أن يهدئ تحركاته واتصالاته لفترة، ريثما تختفي الشكوك. في هذه اللحظة رن هاتفه، كانت رسالة من رقم مجهول قد وصلت له. فتحها، فوجد فيها صورته وهو يسلم ميعا الأموال ليقتل مصطفى! سقط الهاتف من يده.. كان مصدومًا كأنما تمت تعريته في وسط الشارع فجأة، مكشوفًا لا ستار له. كيف؟! ماذا؟ أسئلة كثيرة تطايرت في عقله، قبل أن يتصل بسمير جدو، ويخبره بما حدث.

استمع إليه سمير جدو حتى أنهى كلامه، ثم صمت لبرهة، لم يجرؤ أبوزيد على مقاطعتها. ببرودة الموت رد عليه أخيرًا:

- ما تخافش يا ابوزيد.. اللي بعتها لك ده، لو كان عايز يسلمها للداخلية كان سلمها. ده حد عايز يخوفك بس، يمكن يطلع بمصلحة. ممكن يكون ميعا نفسه طمعان.. في كل الأحوال الخطر

دلوقتي من ميعا سواء انه يتقبض عليه ويعترف، وساعتها الصورة دي هتطلع؛ أو إنه يكون بيبتزك. اخلص منه.

فكر أبوزيد في الكلام واقتنع سريعا، ورد:

- تمام يا باشا.

اختلس أبوزيد قبل نهاية ورديته طلقتين لسلاحه الميري. كان من قبل قد صنع نسخة من مفتاح خزانة الطلقات لنفسه، وتسديد الفاقد ما أسهله فيما بعد. اتصل بميعا، يخبره أن لديه مهمة جديدة له، ويطلب منه أن يلقاه خلال ساعة في المدافن، ليسلمه باقي المبلغ، ويتفق معه على تفاصيل الموضوع الجديد.

لم يكن ميعا إذا سمع برزق جديد ليتأخر. عند المغرب، كان أبوزيد مع ميعا، فسلمه النقود، فأخذها منه متلهفًا، وتقرفص على الأرض يعدُّها بتركيز، بينما يسأله عن المهمة الجديدة. أخرج أبوزيد سلاحه مسرعًا مستغلا تركيز ميعا مع أوراق

النقود. لكن حركة التقاط أبو زيد لسلاحه نبهت المجرم المحنك، فرفع رأسه ليراه ويتأكد من غدره، ثم يقفز من شباك حوش المدفن المفتوح، الذي كان يجلس تحته احترازًا لمثل هذا الاحتمال.

أسرع أبوزيد يجري وراءه في جنون. لو أفلت منه ميعا الآن، ستتعقد الأمور بشكل لا يمكنه تصوره. سيكون حينها بين فكوك الذئاب، الشرطة ويوسف وميعا والباشا جدو. الظلام الحالك كان حليف ميعا، أبوزيد لم يستطع التصويب عليه. لو كان في كامل وعيه لاتخذ ألف مخبأ في المقابر التي يحفظها عن ظهر قلب، لكن جرعة المخدر التي ضربت عقله، جعلت تصرفه محدود في الجري للهرب، حتى فوجئ بنفسه قد وصل إلى الشارع الرئيسي، والسيارات تمر به مسرعة كالبرق. وقف ميعا يترنح، لا يدري ماذا يفعل، كان أبو زيد يقترب نحوه بهدوء، رافعًا سلاحه يستعد للتصويب. لم يكن أمام ميعا إلا أن يخاطر ويجرب حظه، فقفز في نهر الطريق يجري محاولًا العبور، لكن سيارة مسرعة أطارته في الهواء، قبل أن يسقط على

رأسه ميتًا.

وقف أبوزيد ينظر إلى المشهد في رهبة، ثم أدرك أن عليه الابتعاد سريعا، فتدثر بالظلام واختفى بين المدافن، وخرج من ناحية أخرى.

وهو في طريقه عائدًا للمنزل، اتصل بسمير جدو وقال له بنبرة منشرحة:

- تمت يا باشا.

- حلو قوي.. عدي عليا دلوقتي حالًا عايزك.

* * *

جلس أبوزيد مع تركي المحامي في حديقة فيلا سمير جدو. سأله أبوزيد:

- أمال فين سمير باشا؟

- سمير باشا مش جاي، هو جابك عشان تسمع الكلام اللي هقولهولك ده.

توجس أبوزيد وسأل:

- خير؟

- بص يا أبوزيد، انت دلوقتي العين هتزيد عليك أكتر من أي وقت تاني.. مصطفى مات، وميعا مات، وده هيزود شكوك شريف الزيني أكتر. ماهو بالمنطق، ميعا عمل كده عشان مدفوع له، واللي دفع له اتخلص منه لما غرضه انتهى؛ صح الكلام؟

- والحل؟

- مافيش حل.. في الظروف دي مش كفاية انك تختفي، لأن ده هيأكد شكوكه، ومش هيسيبك.. خصوصًا اننا مش عارفين إن كانت الصورة دي هتوصل له بأي شكل.. الحل الوحيد علشان يسيبك انك تموت..

قفز أبوزيد مذعورًا صائحًا:

- نعم!

وبينما بدأ يتراجع للخلف، قال له تركي في هدوء:

- اقعد يا غبي. سمير جدو لو عايز يموتك ماكانش تعب نفسه وجابك، وماكناش جبناك تموت في الفيلا بتاعته.

- أمال قصدك ايه؟

- قصدي اننا نزوَّر لك موتة..

جلس أبوزيد مجددًا، وهو يسأله في ريبة:

- ازاي؟

- بسيطة.. مشرحة زينهم فيها جثث كتير مجهولة.. هنضرب تقرير ان جثة منهم ليك، وهنخليها جثة صعب التعرف عليها.. وهناخد ورقك وبطايقك وهدومك، ونحطها مع الجثة دي.. وانت بقى تختفي خالص.. سمير باشا هيدبر لك شقة في مكان بعيد، لحد ما الدنيا تهدا خالص، ويوسف ده نخلص منه أو يخش السجن.

- وأنا هعيش ازاي؟ محدش هيشغل واحد طالع له شهادة وفاة.

- اصبر بس جاي لك.. خد دول..

ناولـــه تـــركي بطاقـــة وشـــهادة مـــيلاد مزورتـــين، وأخبره:

- من النهاردة انت اسمك على الورق عبدالله أحمد الزيـن شـعبان.. مولود فـي بني سـويف، وهشـتغل سواق في شركة من شركات الطوانسي باشا.

أمسـك أبوزيـد البطاقة وتأملها. لم يـر فـي حياته بطاقة مزورة بهذه الجودة. إنها ليست مزورة، بل تم استخراجها من السجل المدني بهذا الاسم.

- حلو.. وده هيبتدي من امتى.

- مـن بكـرة هتختفـي. وبعـدها بـيومين هنبعـت للمباحث ان جثتك اتلاقت، حتى عشان نفسر حالة الجثة ان عدا عليها فترة.

هز أبوزيد رأسه موافقًا وقال:

- أنا تحت أمر سمير باشا.

* * *

بعد مغامرتهم القصيرة في القاهرة، عاد يوسف وأوفة لمخبأهم في قرية مينا. صار مينا وأخوه الآن جزءًا من مجموعة إنقاذ يوسف، وشعر يوسف لأول مرة أن له اخوة يستند عليهم ويأتمنهم على حياته، منذ ترك القوات الخاصة.

تولى مينا عن يوسف مهمة إرسال الصور والتهديدات، فتغير الصوت والأرقام سيساعد في خلق الوهم أن من يلاحق أبوزيد ومن معه جماعة كبيرة، وليس مجرد يوسف أو فرد واحد. بينما ظل يوسف يتابع مع أسامة وروسيا، كان أوفة قد بدأ يساعد عم جميل في الغيط، ويستمتع لأول مرة بإحساس أنه يقوم بعملٍ شريف.

اتصل أسامة بيوسف في صباحٍ ما ليخبره:

- ميعا وأبوزيد ماتوا..

تلقى يوسف الخبر بخيبة أمل كبيرة. لم يتبق من يلاحقه. كل من تورطوا في هذه القضية يختفون.

قال له أوفة:

- أكيد سمير جدو اللي ورا ده. لازم يبقى هو هدفنا وش كده وما نفضلش نلف حواليه من بعيد. احنا معانا صوره مع أبوزيد والشنط، وصور أبوزيد مع ميعا، وعلاقة سمير جدو بضياء جدو.. كل ده ضده.

- الموضوع مش سهل يا أوفة.. سمير جدو شخصية مسنودة جدًا، وليها نفوذ ضخم.. فلوس ماتتعدش وعلاقات مع ناس مهمة جدًا.. عندك مثلا صديقه المقرب، الطوانسي، عضو مجلس شعب وله حصانة وعلاقات على مستوى كبير.

- طب ما انت ظابط يا يوسف.. مش ممكن ماتعرفش انت كمان حد كبير يعرف يمشي وراهم

- مش عارف يا أوفة.. محتاج وقت أفكر تاني..

كانت الأمور في القرية أهدأ بكثير، فمنذ عدة أيام اختفى حناطة ورجاله ولم يعد أحد منهم يظهر في شوارع القرية. جلس مينا ومايكل مع يوسف

وأوفة ليلًا يتسامرون. قال مايكل:

- كلها يومين والآثار هتيجي بقوة تأمين تستلم البيت، وساعتها مطمع حناطة فينا يختفي، ويسيبنا في حالنا بقى.

ابتسم له يوسف وقال:

- هتبقى البلد كلها انتصرت عليه يا مايكل.. هيفتكر طول عمره أن البلد كلها وقفت له وعرفته حجمه الحقيقي.

ثم همس لنفسه:

- عقبالي...

ضحك مايكل وقال:

- وبكرة آخر مرة أنزل حراسة وبعدها هعرف أركز في المذاكرة بقى.. امتحانات ثانوية قربت.

نظر أوفة ويوسف له مصدومين، وسألوا في نفس واحد:

- ثانوية!

رد ضاحكًا:

- أيوة يا رجالة، ايه شكلي مايشبهش ولا ايه؟

صاح فيه يوسف مازحًا:

- لا انت تلاقيك بتعمل كل ده عشان تهرب من المذاكرة. مالكش حراسة بكرة يالا.

ضحك مايكل وقال:

- لأ يا عم ده أهم..

ثم أتبع:

- دي ذكرى هتفضل معايا العمر كله، ان الواحد وقف راجل وحمى نفسه وأهله وقريته.

ابتسم له يوسف معجبًا، وشرد يفكر في شباب هذا البلد.. تعقدت الفكرة في عقله في لحظات، ففضل عدم التعليق، وارتشف الشاي الساخن في صمت.

* * *

عند الفجر، خرج مايكل من الدار، ليشارك نوبته مع عدد من شباب القرية. وقف كل منهم حاملًا بندقية قديمة، منتشرين على مسافات متساوية حول سور البيت الأثري. كان صباحًا هادئًا، وأصوات العصافير تزقزق من حولهم. كل شيءٍ بدا أنه سيكون على ما يرام. هذا آخر يوم، وليست سوى عدة ساعات وتأتي القوة الأمنية لتستلم المكان.

فجأة ومن العدم، انهمر عليهم وابل من الرصاص من كل مكان. أسرع كلٌ منهم يختبئ وراء عمود أو جدار. كان حناطة قد تحصل على عدد من الرجال والأسلحة المتطورة، معونة من سمسار الآثار الذي كانت أرباحه من هذه الصفقة لتتجاوز عشرات الملايين. فكر حناطة في أن أنسب وقت لتنفيذ ضربته هو قبل أن تأتي القوة مباشرة، حيث سيكون أهالي القرية قد اطمأنوا وتفاءلوا أن الأمور ستمر بسلام، وتراخت أصابعهم عن الأزندة. وبالفعل، وفي شروق يوم قدوم هيئة الآثار، شن

حناطة هجومه الشامل على الدار. فليتدمر، فليشتعل، فلتأكله النيران، المهم أن يفتح السرداب وينهب كل ما بداخله.

أدرك الشباب أنهم لن يقدروا على مواجهة هذا العدد والعتاد، فبدأوا بالانسحاب. أصيب أحدهم، فسقط أرضًا وراء أحد الجدران المهدمة، فأسرع مايكل نحوه يحمله ويجري به عائدًا، ليشعر فجأة بألم حارق في ظهره، ويسقط أرضًا وهو ينزف ويصرخ ألمًا.

سحب باقي الشباب مايكل والشاب الآخر، وخرجوا من الباب الخلفي للسور، واختبؤوا وراء الأشجار، محاولين البدء برد الطلقات على المهاجمين. صوت الرصاص رج البلدة، وأدرك أهلها ما يدور، فهرع رجال القرية ينجدون أبناءهم، حاملين الأسلحة، التي لا يخلو بيت في الصعيد منها. تزايد العدد، وحتى من لم يملك سوى فأسه أسرع يجري به مع الرجال، إلى حيث تحولت المواجهة إلى ثأر متراكم. أخذ يوسف بندقية

جميل، الذي ركع إلى جوار ابنه يحتضنه ويصيح باسمه، وأسرع أوفة نحو الشابين المصابين، فكشف عن جراحهما التي اعتاد إسعاف مثلها أوَّليًّا أيام بلطجته. أخذ من الرجال عماماتهم وربط بها إصابات الشابين، والتفت إلى جميل وقال له:

- ماتخافش يا عم جميل، هيقوم بالسلامة!

أسرع يوسف بالبندقية، يتقدم الصفوف ويطلق النيران، ولحق به أوفة في الخلف، يعلم الشباب كيف يحضرون زجاجات «الفتيل» أو المولوتوف. بعد قرابة نصف الساعة، أعاد يوسف تقييم الوضع، وتراجع إلى حيث أوفة وهمس له:

- احنا لازم نرجع وننسحب، مش هنعرف نقف قدام كل ده. عايزك تسيب اللي بتعمله، وتعمل حاجة أهم قوي.. صور كل ده فيديو.. اجري في كل حتة على قد ما تقدر وصور كل حاجة، وصور بيت خورشيد.. بس حاول ماتطلعنيش في الفيديو..

هز أوفة رأسه له للتعبير عن فهمه لما يريد يوسف،

بينما تقدم يوسف للأمام وبدأ يسحب الرجال تدريجيًا بشكل يضمن سلامتهم، حتى أتم انسحابهم وراء أستار الأمان، تاركًا حناطة ورجاله يتقدمون نحو المنزل ويحتلونه.

حمل الرجال مايكل وصاحبه، وأخذوهما إلى الوحدة الصحية، حيث استقبلتهم الطبيبة الشابة دكتورة هند، التي استدعت الإسعاف من أقرب مدينة، وبدأت على الفور بإسعاف المصابين. ابتعد يوسف عن الجمع، وأخذ الهاتف من أوفة واتصل بأسامة، ليطلب منه شيئا عاجلًا.. انتظر دقيقتين، قبل أن يرد عليه أسامة برسالة فيها ما طلبه. اتصل بالرقم، فردت عليه:

- آلو.. نهى نورالدين.

- أيوة.. معاكي يوسف الألفي.. أعتقد حضرتك مهتمة بقضيتي مش كده؟

استطاع يوسف أن يشعر بصدمتها عبر الهاتف، حيث ظلت صامتة ربما لنصف دقيقة أو أكثر قبل

أن تقول:

- أتأكد ازاي انك هو؟

- أقدر أقول لك انا هربان فين. بس لازم تبقي عارفة اني ماعملتش اللي بيتهموني بيه. الاتنين اللي عملوا كده أمناء شرطة اسمهم مصطفى وأبوزيد، كانوا معايا في القسم، واللي خلاهم يعملوا كده ويتهموني، قتلهم بعد ما نال غرضه منهم. ممكن تراجعي ده بنفسك تتأكدي.

- وانت متصل بيا ليه دلوقتي؟

- عشان عايز منك خدمة مهمة جدًا.

- خدمة؟!

- أيوة.. تعرفي ايه عن الصعيد؟ تعرفي ان فيه ناس غلبانة جدًا بيواجهوا الدنيا لوحدهم من غير دولة تحميهم؟.. انا دلوقت هناك.. القرية اللي انا فيها دلوقتي بتواجه خطر كبير هم مش قده، ومحتاجين مساعدة، وماحدش دريان بيهم.. احنا

بقالنا من الفجر في تبادل إطلاق نار أكبر مما تتخيلي

- والمفروض اني أصدق الكلام ده؟

- مش لازم تصدقيني، لو شايفاني مجرم. أنا هبعت لك الدليل على الرقم ده أول ما اقفل معاكي. اتفرجي بنفسك عالفيديو وشوفي هتحبي تعملي بيه ايه

- فيديو ايه؟

- هتشوفي بنفسك..

أغلق يوسف الخط، وعاد ركضا إلى بيت جميل، حيث يمكنه التقاط شبكة الإنترنت. أرسل فيديو المعركة الذي صوره أوفة إلى الصحفية، دون حتى أن يراجعه ليطمئن لعدم ظهوره فيه. لم يكن هناك وقت لذلك، فكل دقيقة تعني فرق ما بين الحياة والدمار. ظل يراقب تحميل الفيديو وهو يدعو الله أن يتم إرساله وأن تنجح خطته المجنونة هذه.

* * *

أجرت نهى نورالدين عدة اتصالات سريعة، وعلمت أن بالفعل تم إبلاغ وزارة الآثار بهذه الأحداث منذ فترة، وكان من المفترض أن تصل اليوم قوة أمنية للقرية لاستلام المكان، لكنها تأخرت لعوائق روتينية. لعنت الروتين ومن يعشقونه، وقررت أن تذيع الفيديو في برنامجها التلفزيوني. كان عليها بالطبع أن تخفي أي علاقة ليوسف بالأمر. لو عرف أحد أنه من أخبرها، لن تقدر على التواصل معه مرة أخرى، ولن يتصل بها مجددًا، وهي تريد أن تكسب ثقته، لتصل إلى الحقيقة.

كانت تفكر في علاقته بما يدور في هذه القرية. هل له يد في هذا الهجوم، أم فعلًا يريد حماية أهل القرية فقط؟ لقد قرأت الكثير عن تاريخه وحياته، وبحثت في كل أوراقه الرسمية، ولم يكن هناك يومًا ما يربطه بهذه القرية أو بالصعيد كله. كيف عثر على من يخبئه هناك، ثم يصادف حضوره كل هذه الأحداث؟ لماذا يخاطر بكشف نفسه بهذا

الشكل؛ أفقط من أجل حماية أثر من آثار عديدة يهملها الوطن؟! زادتها هذه المكالمة أسئلة بلا إجابات، لكنها أعطتها كذلك دفعة من التفاؤل بانفراج قريب في هذه القضية.

قبل ساعة واحدة من موعد ظهورها على شاشات التلفاز، تلقت اتصالًا من جهة أمنية مجهولة، تأمرها بألا تذيع الفيديو لدواعي السرية، وتخبرها أن التحرك لمواجهة ما يحدث سيتم قبل عرض الحلقة، وأن القوات بالفعل على أطراف القرية وعلى وشك الهجوم، ولا داعي للقلق. تلقت نهى المكالمة بلامبالاة، وما كان هذا سيحدث في أي وقتٍ آخر. ما أقلقها من المكالمة هو قضية يوسف. كيف عرف المتحدث بأمر الفيديو؛ هل توصلوا إليه وراقبوا مكالماته؟!.. ردت بسرعة تنهي المحادثة:

- تمام يا فندم مش هنذيع الفيديو، وبالتوفيق لأولادنا على أرض المعركة.

* * *

عند العصر، كان أهالي القرية كلهم قد احتشدوا أمام الوحدة الصحية، غاضبين للشباب المصاب برصاص الغدر، ولأول مرة تنتفض القرية ضد من طغى وأذاقهم المر. وبدأ الكلام يتخد مسار الرد على حناطة، العين بالعين، والجروح قصاص.. بدأت نبرة الثأر، وأنهم إن خنعوا لابتزاز أموالهم، فالأبناء خط أحمر، سيندم أن تخطاه.

دخل أوفة يجري على يوسف، الذي كان جالسًا يفكر في الخطوة القادمة بجوار سرير مايكل.

- يوسف.. الأهالي بره قرروا هيطلعوا على بيت خورشيد تاني، وجمعوا سلاح أكتر، وطلبوا ولاد عمامهم من النواحي اللي حواليهم. فيها حرب هتقوم.

قام يوسف مسرعا وهو يقول:

- يلا.

قاطعهم مجيء محمود، الذي قال بابتسامة واسعة:

- الشـرطة والجـيش وصـلو..ا خـلاص المـدرعات داخلة البلد ورايحين على البيت.

هلـل جمـيع الحاضـرين الموجودين، ما عدا أوفة ويوسـف الـذين تبـادلا النظرات القلقة. أدرك مينا الذي كان جالسًا بجوار أخيه، فأشار لهم هامسًا:

- تعالوا.

أخـذوا جـانبًا بعيـدًا عـن الجميع، فـي غرفـة أخـرى، وقال لهم مينا هامسًا:

- انتم لازم تخرجوا من البلد دلوقت. الجيش لما بيدخل حدانا في الصعيد، يبقى البيوت هتتمشط بـيت بـيت. هيفتشـوا كـل النـاس، وهيـدوروا على الـهربان مـن رجالـة حناطـة بعـد العركـة، والـدنيا هتبقى مقلوبة هنا أيام ياما.

هز الاثنان رأسيهما متفهمين. أكمل:

- أنا عارف مين هيقدر يساعدكم. هو راجل طيب جدًا وذكي، وبيعرف دايمًا يخلص الأمور.

أخذهم مينا من الوحدة الصحية إلى منزل الشيخ حامد. كان الشيخ حامد إمام مسجد القرية، رجلًا طيبًا شجاعًا لا يهاب الوقوف في صف الحق، وكان في خطبة الجمعة يتحدث كثيرًا عما يفعله حناطة، ويطلب من أهل القرية الوقوف ضده. قال لهم مينا:

- الشيخ حامد سمع عن ضيوف دار جميل اللي حموا البلد، وأكيد هيساعدكم.

بالفعل، استقبل الشيخ حامد مينا ورفاقه، وجلس معهم في داره، حيث حكى له مينا في إيجاز حكاية الشابين أوفة ويوسف، وشهد لهما بالشهامة والبراءة، وأنهما ضحيا كثيرًا لأجل البلدة وأثبتا معدنهما الطيب. فكر الشيخ حامد قليلًا ثم قال:

- أنا واثق فيك يا مينا.. أبوك طول عمره راجل جدع، وانت أنا عارفك من وانت عيل. كده احنا لازم نتحرك دلوقتي على طول.

ثم اعتدل في جلسته واتبع:

- والله انتم حظكم حلو وربنا بيحبكم. بنتي هند النهاردة كنا هنبعتها لخالها الحاج علي، عشان هي بتدرس جنبهم في جامعة القاهرة في الجيزة، وابن أخويا ملك كان جاي ياخدها بعربيته الأجرة، هناخدكم معانا بالعربية نطلعكم على هناك، ومطرحهم هناك واسع وفيه أوضة هتاخدكم.

قال له يوسف:

- شكرًا جدًا يا شيخ حامد، ده كرم كبير منك، بس ازاي هنعدي على الكماين؟ أكيد في الظرف ده هتكون السكة مرشقة كماين

فكر الشيخ حامد قليلًا، ثم سألهما سؤالًا أثار دهشتهما:

- عندكم مانع تلبسوا نقاب؟

* * *

انطلق الجمع المكون من الشيخ حامد وابنته والشابين وملك السائق، متجهًا نحو القاهرة.

انطلقوا بعد مغرب الشمس بقليل، وكان الشيخ حامد معروفًا, فلم يعق طريقهم الكثير، بل كان يعرف بعضًا من الواقفين على الكمائن، وكان يحييهم وهم يعبرون في هدوء. وبعد منتصف الليل بقليل، وصلوا أخيرًا إلى منزل الحاج علي، ثم لم يخلعوا النقاب الذي اختبؤوا تحته، إلا بعد الصعود للمنزل، حيث استقبلهم الحاج علي، الذي لم يكن يعرف من الشيخ حامد سوى أن هؤلاء الشابين معرفة وثيقة من القرية، وأنهما يحتاجان مكانًا لمبيت بضعة أيام.

كان الحاج علي رجلًا مريضًا كبيرًا في السن، يعيش مع زوجته الحاجة كريمة، بعدما ابتعد أولادهم جميعًا عنهم، لانشغالهم بأعمالهم ومناصبهم، وكانت هند تؤنسهما وتساعدهما في أعمال المنزل، في مقابل استضافتهما لها. جلس الحاج علي معهما وتحدثا قليلًا، وتعرف على أسمائهم، ثم استأذن منهما، فقد حان وقت النوم، بعد أن فتح لهما باب غرفة صغيرة فيها سريرين..

- دي كانت أوضة الأولاد، هند بتنام في أوضة البنات. صغيرة معلش بس تمشي الحال.

- كتر خيرك يا حاج علي، دي زي الفل.

ومجرد أن أغلق الباب، ارتمى يوسف وأوفة على السريرين، وضاعا في غياهب النوم.

* * *

دارت معركة كبيرة بين قوات الأمن وأهالي القرية من ناحية، وحناطة ورجاله من ناحية، انتهت بطرد وقتل واعتقال الكثير من رجال حناطة، وفرار حناطة نفسه إلى قلب الجبل مرة أخرى، ولم تتركه قوات الجيش، بل انطلقت تبحث عنه هناك.

فيه هذه الأثناء، كانت أنباء ما حدث قد انتشرت في أنحاء الجمهورية، وتناقلتها وكالات الأنباء. وحدها نهى نورالدين كانت تعرف أكثر من الباقيين جميعًا، وبينما بحث جميع الصحفيين والمذيعين عمن يحدثهم عن حناطة ودار خورشيد بك، كانت نهى نورالدين تسأل في السر عن يوسف وأوفة، أو عن أي غريب ساعد القرية في هذه المحنة، ودلها بعض السذج على مايكل ومينا. رفض الاثنان الحديث عن الموضوع، خوفًا على يوسف، لكنها أقسمت لهما أنها لن تكشف سره، وذكرتهما أنه كلمها بنفسه وأخبرها بما يدور في القرية، لتكون سببًا في إسراع وصول القوات لها، وأرتهما الفيديو الذي أرسله لها كدليل. حينها فقط بدءا بتصديقها، فهما يعرفان أن هذا الفيديو من

تصوير أوفة، وأن يوسف الذي طلب منه ذلك.

حكى لها مايكل ومينا عن شخصية يوسف، عن شجاعته وتحميسه أهالي القرية على الوقوف في وجه الظلم، وعن حبه لعائلته، وكيف خاطر بنفسه ليزور أمه.

- ايه ده! انتم كنتم هناك؟ أنا كنت هناك يومها بتكلم مع العقيد شريف الزيني المكلف بالبحث عن يوسف، وشفت المطاردة اللي حصلت!

وبعد أن تركتهم نهى، أخذت سيارة الجريدة عائدة نحو القاهرة، أدركت أن في هذه اللحظة لم تعد القصة تشغلها كموضوع صحفي، بل فقط الحقيقة وشخصية يوسف الغامضة هذا، الذي يظهر في كل حين ليثبت أنه عكس صورة الشيطان التي رسمتها له في عقلها. أخرجت صورته من أوراق الملف الذي تصحبه معها دومًا، وهمست لنفسها وهي تنظر لوجهه الوسيم:

- يا ترى إيه حقيقتك انت يا يوسف؟

* * *

للمفارقة، كان يوسف في هذه الفترة أيضًا يفكر في نهى كثيرًا. بعدما جرى في القرية، أدرك أن الإعلام أداة قوية، يمكنها تحريك المشهد، ويمكنها أن تواجه أكبر رؤوس في البلد. شارك يوسف أفكاره هذه مع أوفة فقال له:

- بص احنا بقالنا كام شهر هربانين.. هل فيه خيار تاني؟ كلمها وخليها تساعدك..

ثم ناوله الهاتف، وخرج من الغرفة ليترك له مساحته. تناوله يوسف، وفكر «أستنى ايه؟»، وبالفعل اتصل برقمها مجددًا.

على الناحية الأخرى، أحست نهى أن هذا يوسف من يتصل، فردت بهدوء:

- الصحفية نهى نورالدين..

- أيوة.. يوسف الألفي معاكي..

حافظت على هدوءها وقالت:

دومة الكتب مراجعة

- أيوة يا يوسف معاك..

سألها يوسف مباشرة:

- انتي مقتنعة اني بريء ولا مذنب؟

- المتهم بريء حتى تثبت ادانته. وانت ادانتك كانت واضحة.

- كانت واضحة.. كانت.. إنما دلوقتي؟ بعد ما مصطفى وأبوزيد ماتوا؟

صمتت نهى ثانية، قبل أن ترد:

- براءتك أو اتهامك ده قرار المحكمة مش قراري. لو سلمت نفسك هنعرف الحقيقة.

- انتي عارفة ان دي مش الحقيقة! لو سلمت نفسي وتحت الضغط الاعلامي ده هبقى كبش فدا!

- ولو انت بريء.. هترضى تفضل عايش طول حياتك هربان؟

- لأ أكيد.. مش هعرف.. لازم أثبت براءتي بنفسي، وعشان كده محتاج مساعدتك..

- .....

- انتي صحفية كبيرة، عندك خبرة في تتبع الحقيقة، وعندك مصادرك، ولو كشفتي الحقيقة دي هيبقى أعظم انجاز مهني ممكن صحفي يتمناه لنفسه، واسمك هيفتكروه في تاريخ الصحافة المصرية بعد 100 سنة..

فكرت نهى في كلامه ووجدته منطقيًا، لكنها ردت:

- أنا كده كده بدور على الحقيقة. دي شغلتي. ولو انت بريء فعلًا هوصل لده.

- أنا هعرف أثبت لك براءتي.. بس نتقابل.

- نتقابل؟

- أيوة.. بس هل أنا أقدر أثق فيكي؟

- أكيد.. قصدي.. دي هتبقى حاجة كويسة للشغل،

ويمكن ساعتها أقدر أفيدك لو أقنعتني..

- أنا هثق فيكي، لأني عارف انك انسانة طيبة وعايزة الحقيقة.

- ليه بتقول كده؟

- انتي ماقلتيش لحد ان أنا اللي بعت لك الفيديو، لأنك لو قلتي ماكانوش سابوا حد يطلع من البلد هناك، وكان زماني اتمسكت خلاص..

لم تجد نهى ما ترد عليه به. أعطاها يوسف عنوان الحاج علي، وأخبرها أنه ينتظرها.

* * *

جاءت نهى للعنوان لمقابلة يوسف. رنت الجرس وأدخلتها هند، كان التوتر الشديد باديًا عليها، حتى أن قدميها ظلتا ترتعشان وهي جالسة، قبل أن يأتي يوسف ويجلس أمامها. لم تصدق أنها تجلس أمام يوسف أخيرًا. يوسف الذي أهلك الحكومة كلها بحثًا عنه. ابتسم لها يوسف شاكرًا لها

دولة العنكبوت

حضورها، وبالفعل بدأ يريها كل ما يملك. كل صور وتقارير روسيا وأسامة عن تحركات مصطفى وأبوزيد، علاقتهم بسمير جدو، اتفاق أبوزيد مع ميعا الذي قتل مصطفى، قبل أن يموت بدوره هو وأبوزيد. وكانته نهى بالكاد تركز فيما يقال، فبرغم أنها رفضت الاعتراف لنفسها بهذا، أحست بأن هناك ما يجذبها بشدة ليوسف، الذي انهمك في محاولة اثبات براءته لها. وقبل أن يكمل حديثه للنهاية أوقفته وقالت مبتسمة:

- خلاص يا يوسف.. أنا مصدقاك..

- يعني هتساعديني؟؟

- اديني نسخ من الحاجات دي كلها، وأنا هحاول أشوف أقدر أعمل ايه منها، وأشوف لو أقدر أكون منها قصة قوية بما يكفي انها توقعهم هم، مش توقعنا احنا.. الحيتان اللي زي دول بيدوك فرصة واحدة بس تضربهم، لو ماكانتش في مقتل تبقى انت انتهيت..

روحة الكتب حرامية

قال لها يوسف في إعجاب:

- أكيد.. بس انتِ مصدقاني يعني؟

ابتسمت له وقالت:

- أيوة.. وهساعدك بكل اللي أقدر عليه..

ابتسم يوسف ابتسامة واسعة، ربما بدت طفولية، وبدا أنه لا يدري ماذا يقول وهو يتلعثم فرحًا..

- مش عارف.. يعني.. بجد شكرًا.. انتي بتديني أمل وأنا كنت خلاص.. يعني.. كده فيه أمل..

قامت نهى وسألته:

- الرقم اللي كلمتني منه ده هعرف أوصلك عليه تاني؟

- بغيره كل يومين، بس هوصل لك الرقم الجديد دايمًا..

- تمام.. نتقابل قريب تاني ان شاء الله بأخبار كويسة..

دودة الكتب حرامية

ورحلت نهى.. انصرفت وهي تفكر في قرار قوي.. ستبرئ ذمة يوسف، حتى لو كان هذا تحقيقها الأخير.

* * *

ربما تظاهر سمير جدو كثيرًا بالتماسك أمام رجاله، لكنه في واقع الأمر كان على وشك أن يفقد أعصابه. موضوع يوسف كان يأبى أن ينتهى، وقد أخذ يكلفه رجالًا وأموالًا ووقتًا، وكل ما بنى سلطته عليه. وكان هناك شخص واحد فقط ائتمنت نفسه أن يعبر عن خوفه وقلقه أمامه: صديقه الطوانسي.

كانا معا، يدخنان السيجار في حديقة الطوانسي باشا الكبيرة. كان سمير جدو يتحدث بقلق شديد.

- كل يوم ابن الكلب ده بيقضيه هربان أنا بخسر. مش فاهم ازاي واحد بس.. واحد بس! ازاي يقدر يعمل كل ده.. محدش لاقي له أثر.. شبح!.. بيتصل برجالتي، ويجيب أرقامهم، ويهددهم، عارف

يوصل لي وأنا مش عارف أوصل له! أنا خايف بعد ما كل اللي اتفقوا عليه ماتوا، مايتبقاش غيري وبييجي عليا أنا!

أطفأ الطوانسي سيجاره، وقال له بصوته العميق المميز، الذي كثيرًا ما جعل الجميع يسكت ليستمع له في جلسات مجلس الشعب:

- مش هيحصل.. هو عايز يثبت براءته، مش عايز ينتقم.. لو حصل لك حاجة مش هيستفيد..

- ما هو مش هيثبت براءته غير بانه يثبت بان حد غيره اللي عملها.. وواضح انه عارف علاقتي بالموضوع.

- خلاص.. اثبت براءته.. ابعت لأي جريدة من اللي بندفع لهم دول صور أو أي حاجة، خليهم ينشروا عن أمناء الشرطة اللي ورطوا الضابط الهارب. ألف لها قصة حلوة بس.. ساعتها مش هيضطر ييجي وراك. ممكن حتى تتفق معاه على ده، براءته مقابل السلام.

- وهو أنا لو عارف أوصل له كنت خلصت منه مش اتفقت معاه..

فكر الطوانسي قليلًا، ثم قال:

- استنى انت ما تفكرش في حاجة ولا تخطط وانت خايف بدل ما تخربها يا جدو. أنا هفكر لك في خطة.. ماتخافش. هيجيلك تحت رجليك..

* * *

تأمل يوسف باقة الورود في يده، ثم نظر نحو الباب وطرق عليه ثلاث طرقات.. ناداه أحد من الداخل:

- خش يا يوسف..

فتح يوسف الباب ودخل. كانت أمه راقدة على سرير المستشفى، ووالده بجوارها يمسك يدها، وكلاهما ينظران نحوه بابتسامات عريضة. قالت أمه:

- يااااه يا يوسف.. وحشتني قوي..

جـرى عليـها يوسـف ووضـع الـورد عنـد أقـدامها، وعانقها وهو يقول:

- وانتي كمان قوي يا ماما..

- أخيرًا شفتك بعد الغيبة دي كلها.. أنا مش مصدقة نفسي..

- ولا أنا يا ماما.. ولا أنا..

نظرت أمه في عينيه وسألته:

- كل حاجة بقت كويسة خلاص؟

فأجابها دامعًا:

- كل حاجة بقت كويسة خلاص..

- أنا أهم حاجة أتطمن عليك، ده أملي من الدنيا، وبعده ماليش.

سألها قلقًا:

- وانتي يا ماما.. بقيتي كويسة خلاص؟

ابتسمت له وقالت:

- وهبقى أحسن كمان.

ثم عانقته مرة أخرى.

رن هاتف يوسف المحمول، فوضع يده في جيبه فلم يجده، لكنه ظل يرن، وظل صوته يعلو. فتح يوسف عينيه فجأة ليدرك أنه كان يحلم، وأن هاتفه يرن بجانبه. وضعه على أذنه ورد:

- أيوة يا أسامة خير..

سمع صوت أسامة باكيًا من الناحية الأخرى:

- طنط راضية يا يوسف.. البقية في حياتك..

* * *

ظل يوسف محدقًا في الحائط يأبى التصديق.. الهاتف ما زال في يده، وأسامة على الخط يردد:

- آلوو.. يوسف.. انت سامعني؟؟

لكن يوسف غاب في عالم آخر. عالم ما زال والدته حيـة فيـه وتنتظـره. رفض أن يعود لعالمه. أغلق الخط، وظل جالسًا في الظلام، حتى استيقظ أوفة وسأله:

- مالك يا يوسف؟

ثم قام مفزوعًا وسأله:

- ايه ده انت بتعيط! انت يا يوسف!

كانت الدموع تسيل على وجهه، كسيلان اللحظات الآتيـة وهـي تمـر ضـائعة موجعة، لا يستوعب يوسف أيًا منها.. لم يستوعب أن أسامة ونهى وأقارب أوفة جاءوا له معزين. لم يستوعب أنهم ساعدوه على التنكر، ليستطيع الصلاة عليها في المسجد، ولم يستوعب أنه لم يكن قادرًا حتى أن يذهب ويلقي عليها نظرة وداع أخيرة في كفنها، ولم يستوعب أنه لم يحمل مع الرجال نعشها حتى سيارة تكريم الإنسان، وأنه انطلق مع الجميع في جنازتها، ولكن في ذيل السائرين، وأضطر لأن يقف

بالخارج وألا يشارك في دفنها، كي لا يفتضح أمره. وقف أمام المدفن يرتعش جسده كالورقة، شاعرًا بأنه هش كالرماد، تكاد الرياح تطيره في الهواء. كان أوفة بجواره متنكرًا أيضًا، يسنده ويحاول التهوين عليه، ومن بعيد رأى نهى نورالدين في زيٍ أسود واقفة مع النساء، وبجانبها خطيبته – السابقة – كنزي.

التفت يوسف لأوفة، وقال له وشفتاه ترتعشان:

- أمي ماتت بسببي يا أوفة.

ضمه أوفه بذراعه وهو يقول:

- ماتقولش كده يا يوسف، الأعمار بيد الله وانت مالكش ذنب في الظلم اللي حصل لك!

- لأ يا أوفة أنا السبب! أنا كنت بعيد عنها وهي محتاجاني! أنا اللي صحتها ضعفت بسببي!

بدأ صوته يرتفع، فخاف أوفة أن ينكشفا، فسحبه بعيدًا، وقال له:

- يوسف! ماتقولش كده وماتعملش كده في نفسك! هي شايفاك دلوقتي ومش هيرضيها اللي بتعمله في روحك ده! ادعي لها بالرحمة وطلع لها صدقة على روحها.. ده اللي تقدر تعمله ليها!

جاءت نهى وراءهما، حيث لاحظت ما حدث، وكانت قد ميزتهما من قبل. سألتهما:

- فيه ايه يا حضرة الظابط، انت كده هتكشف نفسك

قال لها يوسف وهو يبكي:

- أنا خلاص هسلم نفسي.. أنا تعبت.. أنا بدمر كل الناس اللي بحبهم..

اقتربت منه نهى وقالت:

- لأ طبعا دي مش الحقيقة! انت ضحية! ووالدتك كانت ضحية! ولو استسلمت دلوقتي هتبقى ضيعت حقك وحقها!

- أنا مش عارف أجيب لنفسي حقي! ولا هعرف

أجيب لها حقها!

- هتعرف! هتعرف يا يوسف! احنا معاك ومش هنسيبك لحد ما ربنا ينصرك! وده وعد والله!

أكد أوفة على كلامها:

- يوسف.. انت زي أخويا، والله عمري ما هسيبك لو حصل ايه! والله ربنا هينصرك عليهم، لأنك أحسن انسان عرفته في حياتي! اجمد.. وهانت! هنجيب حقك وحقها منهم ولو على رقبتي

بدأ يوسف يهدأ قليلًا. حاول أن يأخذ أنفاسًا عميقة، ليقدر على السيطرة على مشاعره، ثم قال بصوت منكسر:

- يلا نروح.. الناس كلها مشيت..

سار ثلاثتهم خارجين من المقابر، حتى ركبت نهى سيارتها، ثم ألقت على يوسف نظرة حزينة تحمل الكثير من الشفقة والأسى، قبل أن تشير لهما مودعة وترحل. سار الاثنان صامتين نحو الشارع

الرئيسي، واتجها إلى موقف الميكروباص. كان كتفا يوسف قد تهدلا، كأنما عليهما حمول الأرض، بينما أخذ أوفة يثرثر بحكايات كثيرة عما ينوي فعله من معجزات للانتصار لصاحبه.

* * *

برغم كل ما مر به يوسف وأوفة في محنتهما هذه، كان هناك خطرًا واحدًا قد نسياه، وما كان يجب أن يستهينا به.

أولاد مدكور لا ينسون دينًا أبدًا. بحثوا كثيرًا عن أوفة، وتعرض أهله جميعًا لمضايقات كثيرة. حمدي أذيــة لـم يعـد يجلـس فـي القـهوة، بعـد أن ظلـوا يتعرضون له كلما ذهب. أحلام تركت عملها، لأنها كـانت تعـود متأخرًا فـي الليـل، وتجـد من يتبعها. عبدالله ابن أوفة لم يعد يذهب للمدرسة إلا نادرًا، بعد أن تعرض له رجلٌ ما في أحد الأيام، وأخبره أن يخبر أباه الهارب أن يعود لمصيره وإلا سيدفع من لا ذنب له ثمن ذنبه.

كـانت الحاجــة وردة والـدة أوفـة هـي أكثـر مـن تعرضـــت لشـــرهم. كـانت الحاجـة وردة إنسـانة شـريفة، تـأبى الأكـل مـن حـرام، وكـان هـذه نقطـة الخلاف الكبرى بينها وبين ابنها. كانت نصبتها التي تحضـر فيـها الطعميـة وتبيعـها لأهـل الحـارة بربع جنيه الواحدة، هي مصدر رزقها الوحيد. وكانت

كثيرًا ما يشفق عليها أوفة، لحرارة الشمس التي تقف فيها، وسخونة الزيت من أمامها، ويخبرها:

- يا أمي ارتاحي وسيبي لي أنا التفكير في الشغل.

وكانت ترد عليه:

- شغل ايه موكوس! مش هاكل قرش حرام أبدًا!

فكان يرد عليها ضاحكًا ومتألمًا:

- أنا لا عندي قرش حرام ولا حلال..

وبالطبع زاد الموقف سوءًا برحيل أوفة واختفائه، فصارت هذه النصبة هي القشة الأخيرة التي تعلقوا بها، حتى بدأ أولاد مدكور يعبثون بها، محاولين إيصال رسالة أنهم لن يجدوا طريقًا للحياة حتى يسلم أوفة نفسه لهم، أو يرد دينه.

وفي النهاية تمادى أولاد مدكور في فجورهم، حيث ذهب أحد كبار رجالهم هاني مدكور، إلى النصبة، وأحرقها بالبنزين. سمعت الحاجة وردة في بيتها بالخبر، فأسرعت تجري مفجوعة في أكل

عيشها، وتنادي:

- استر يا رب! استر يا رب!

ولكن النيران كانت بالفعل قد التهمت كل شيء، ولم تنل من محاولتها لإطفائها سوى أن أصابتها عدة حروق في جسدها، واضطرت على إثر ذلك للدخول إلى مستشفى القصر العيني.

كان أوفة على اتصال دائم بأحلام، يعرف منها آخر أخبار والدته وابنه، ويحاول ان يلاطفها، محاولًا تخيل سيناريو لنهاية سعيدة في عقله، بعدما أخبره حمدي أذية أن أولاد مدكور يتابعونه دومًا، وأنه غير قادر على الاتفاق على سفره في هذه الفترة.

اتصلت أحلام بأوفة، وأخبرته بما حدث لوالدته، فلما سمع ذلك تذكر كلمات يوسف في دفن والدته، وتساءل إن كان محقًا. هل بالفعل كل ما يفعلانه بهروبهما من المواجهة هو أنهما يضعان من يحبانهم في المواجهة مكانهما؟

لكن أوفة لم يصرح بهذه الأفكار ليوسف الكسير، الذي أمضى الأيام التالية في دار الحاج علي لا يتحدث، لا يخطط، لا يفعل أي شيء. كان يحتاج فترة للتعافي. كان هذا حتى حدث ما اضطر أوفة لأن يصرح بأفكاره.

اتصلت أحلام لتخبره وهي تبكي أن أولاد مدكور الفجرة قد خطفوا أمه، كمحاولة أخيرة لإجباره على العودة، بعدما لم يظهر برغم أنهم أحرقوا مصدر دخل أهله الوحيد. حينها حكى ليوسف ما حدث، فرد عليه يوسف:

- لو سلمت نفسك هيقتلوك!

- ولو ماسملتش نفسي هيقتلوا أمي..

- وممكن يقتلوها لو سلمت نفسك برضه!

- هبقى عملت اللي عليا!

قالها أوفة بعصبية شديدة، قبل أن يتبعها بحدة أقل:

- يوسف.. أنا والدتي لسه عايشة، مش عايز حاجة تحصل لها وأحس إني السبب فيها، لأن المرة دي فعلًا هبقى أنا السبب.. انت أكيد فاهم إحساسي..

أومأ له يوسف ولم يرد. سأله أوفة:

- يعني انت موافق؟

- لأ.. بس مافيش اختيار تاني

ثم قام يوسف من جلسته، واقترب من أوفة وعانقه، ثم قال له بعد أن تركه:

- أوفة اعمل اللي محتاج تعمله عشان عيلتك.. ماتغلطش غلطتي.. وأنا لو فيه حاجة أقدر أعملها لك هعملها، لأنك بقيت عيلتي دلوقتي.. انت الأخ الكبير اللي عمره ما كان عندي، واللي فتح عيني على حاجات كتير ماكنتش واخد بالي منها، وحسسني بناس كتير حواليا ماكنتش حاسس بيهم، بحكم إني محتكتش بيهم غير في الشغل.. ماقربتش منهم أبدًا..

ابتسم له أوفة ابتسامة مكسورة، وقال:

- وانت كمان زي أخويا يا يوسف.. ربنا يبرأ ذمتك ويردك لبيتك..

ودعه أوفة، واتصل برقم هاني مدكور الذي كان معه منذ أن أخذ من أولاد مدكور البضاعة، وقال له:

- أيوة يا هاني يا مدكور.. أنا أوفة.. هاجي لكم بنفسي وأسلم نفسي، بس تسيبوا أمي.. اديني بس مكان وزمان..

رد عليه هاني مدكور:

- العشة.. بعد 12..

كانت العشة مكانًا معروفًا لاجتماعات أولاد مدكور. كانت قهوة قديمًا، لكن لم يعد أحد يذهب لها بعد أن احتلوها، ثم باعها صاحبها لهم، فصارت مكانًا يظهر للرائي من بعيد أنها قهوة عادية، لكن أهالي المنطقية يعرفون جيدًا أن كل الجالسين تابعون

لهذه العصابة.

نزل أوفة من دار الحاج علي، بعد أن شكره وزوجته على الإقامة، ودعا له بالشفاء كثيرًا، وودع يوسف مرة أخيرة، قبل أن ينزل للشارع.

كانت الساعة ما زالت السادسة ليلًا، لكنه لم يكن يدري ماذا عليه فعله كل هذا الوقت. ظل هائمًا في الشوارع يسير بلا مقصد، ويراجع كل ما فعله من حياته، ويتساءل إن كانت حياته هذه ذات معنى. يا ترى، ماذا سيكون مصير عبدالله الصغير؟.. ربما تعتني به أحلام، وتصنع منه رجلًا غير ما كان هو عليه. دعا الله ألا يجعل منه حمدي أذية نسخة منه، ثم فكر أن أمه ستعود وسترعى عبدالله، وستجعل منه رجلًا صالحًا. بكى أوفة عندما أدرك أنه على الأحرى لن يرى عبدالله رجلًا كبيرًا أبدًا. لن يراقبه وهو ينمو ويشتد عودة، لن يذهب معه ليخطب يد الفتاة التي سيحبها، ولن يساعده في تجهيز نفسه. ياله من أبٍ لعين. ياله من رجل لعين. ربما ستصير الدنيا مكانًا أفضل بدونه.

بعد الكثير من السير، أدرك أوفة أن الشوارع بدأت تفرغ من البشر. سأل أحد المارة عن الساعة، فأجابه أنها الحادية عشر والنصف. توجه أوفة أخيرًا نحو العشة، وعندما وصل أمامها خمن أن الساعة قد جاوزت الثانية عشر. كان يشعر بإنهاك كبير، ومستعدًا لأن ينتهي كل شيء الآن.

بالفعل، تقدم أوفة داخل المكان، يبحث بعينيه عن هاني مدكور، بينما رآه الجميع من حوله، وتجمعوا حوله في دائرة. في الركن، كان هاني مدكور يدخن الجوزة، رآه فضحك ثم صاح:

- أمال يا رجالة فين التشريفة؟ ده واجب الضيافة؟

فجأة، انهال جميع الحاضرين عليه بالضرب، حتى سقط على الأرض وتكوم على نفسه، وأدرك أن هذه نهايته، سيضربونه حتى الموت.. ياللقسوة!

لكن هاني مدكور صاح فجأة:

- بس! كفاية! هاتوه.

حمله اثنان من الرجال ورموه تحت قدمي ابن مدكور الذي داس على رأسه بحذائه، ثم رفعه وقال:

- قوم يا أوفة واسمع الكلام.. انت هيتكتب لك عمر جديد..

لم يستوعب أوفة ما يدور، لكنه استند على طاولة بجانبه وجلس على أحد الكراسي، وهو يكح دماءً. سأله أوفه وهو يلهث:

- أمي.. فين؟؟

ضحك هاني مدكور وقال:

- في الحفظ والصون ماتقلقش عليها.. مش هنئذي مرة..

- عايز.. ايه؟؟

- عايز ايه.. امممم.. ده سؤال حلو..

أخذ نفسًا من الجوزة قبل أن يقول:

- بص يا أوفة.. انت تافه.. مالكش لازمة.. حياتك ولا هتفرق معايا.. حشرة يعني.. بس فيه صيد كبير عليه العين، والحشرة – اللي هي انت – ممكن تكون طعم مناسب برضه.. جربت تروح تصطاد على النيل قبل كده؟

نظر له أوفة في غير فهم، فأكمل هاني مدكور:

- الظابط يوسف اللي انت هربته ده.. فيه ناس مهمة عايزينه، والناس المهمة بتدفع كويس يا أوفة.. بتدفع أكتر من مديونيتك لينا بكتير..

- عايز ايه يعني؟؟

- بكرة.. نفس المعاد.. تجيب لي يوسف ده، واعتبر دينك ولا كان، وهتاخد أمك وفوقيها بضاعة كمان تشوف حياتك بيها.. استبينا؟

قال له أوفة:

- ومين قال لك اني عارف هو فين؟

فرد عليه هاني مدكور بسرعة وبطريقة مجنونة:

- هتعـرف! لـو عـايز تشـوفها.. لـو عـايز تعـيش.. هتعرف!

صمت أوفة أكثر من دقيقة، بينما كانت الأنظار كلها معلقة به. صاح هاني مدكور فيه أخيرًا:

- انطق يالا!

رد عليه أوفة بهدوء:

- هجيبـهولك.. بـس مـش هنـا.. هنـا هيشـك أكيـد، ومش هييجي معايا..

فكر هاني مدكور قبل أن يرد:

- ممكـن.. خـلاص هتجيبـهولي علـى العنـوان اللـي هديهولك في الشيخ زايد ده.. انت وهو لوحدكم.

- وأمي والبضاعة يكونوا مستنيني بره.. هقول له يقـابلني هنـاك، وأول مـا يوصـل اعملـوا بيـه اللـي عايزينه، وتدوني حاجتي وتسيبوني أمشي..

- كلام رجالة يا أوفة.. نتقابل بكرة..

قام أوفة من على كرسيه ونظر لكل من حوله، قبل أن يخرج وهو يعرج ويرحل عن المكان، ذاهبًا ليرى عبدالله ابنه مع أحلام وأبيها.

* * *

وقف رجال هاني مدكور وراء نوافذ إحدى شقق مدينة الشيخ زايد، ينتظرون الصيد الثمين. قرابة الثانية عشر اقتربت سيارة أجرة من بعيد، فشق ضوءها ظلام الشارع، ثم توقفت أمام البداية. في الداخل كان يوسف يتحدث مع أوفة في التليفون:

- أيوة يا أوفة، أعتقد اني وصلت خلاص.. أه هو نفس العنوان شايف رقم العمارة.. قلت لي الدور الكام؟

راقب أولاد مدكور يوسف من أعلى وهو يترجل من التاكسي، ويدخل بقدمه إلى بوابة العمارة، غير عالم بما ينتظره. كان أوفة وأمه ورجلان من رجال هاني مدكور وراء البناية، عندما رأوا يوسف يدخل أخبروا أوفة أنه حر الآن، فجرى بأمه والبضاعة

والأموال التي أعطوها له.

نظر هاني مدكور من العين السحرية، حتى رآه يصعد السلالم ويقف أمام الباب، ثم يطرقه.. ابتعد هاني على الباب وأمره رجاله:

- هاتوه..

فتحوا الباب فجأة وسحبوه إلى داخل الشقة، ورموه على الأرض هامين بضربه بكل عنف، لكن هاني مدكور صاح فيهم فجأة:

- استنوا!

ثم أمسك به ورفعه من فوق الأرض صارخًا:

- انت مين!

قال الرجل في خوفٍ شديد:

- انا سواق التاكسي يابيه وحضرة الضابط اللي جه معايا اداني مية جنية وقال لي طلع الجواب دا الشقة دي، بعد ما وراني كارنيه ظابط.

وناول هاني مدكور ورقة صغير، فتحها ليقرأ فيها:

"خيرها في غيرها».

استشاط هاني مدكور غضبًا، فدفع السائق بعيدًا..

- اطلع برة يا بن ال،،،،،

والتفت مبتعدًا وآخر هاتفه، واتصل برقم ما:

- آلو.. طوانسي باشا.. عندي أخبار وحشة.. يوسف فلت منا. ضحك علينا يا باشا وجاب حد تاني مكانه. أنا فاهم يا باشا والله.. أوعدك هنجيبه من تحت طراطيق الأرض..

تلقى هاني مدكور وابلًا من السباب الذي لم يجرؤ على الرد عليه، قبل أن يأمره الطوانسي باشا أخيرًا:

- قدامك 3 أيام تجيبه يا هاني، أحسن لك.

- تمام يا باشا مفهوم..

ثم أغلق الطوانسي الخط في وجهه، وقد بدأ

يصدق كلام سمير جدو عن يوسف اللعين، الشبح الذي لا يمكن الإمساك به.

* * *

في الليلة الماضية بعد مقابلة أوفة لأولاد مدكور، اتصل مباشرة بيوسف وطلب مقابلته، وحكى له عن كل شيء، ثم قال له:

- انت أخويا يا يوسف، وأنا مش هسلم أخويا ليهم..

ابتسم له يوسف ابتسامة سريعة قبل أن يقول:

- أيوة بس لازم نتصرف عشان والدتك ترجع لك.. محتاجين خطة حلوة..

ثم فكر يوسف قليلًا، قبل أن يسأله:

- انت عندك مكان بعيد ماحدش يعرف له أثر، تاخد عيلتك كلها فيه؟

- منين يا يوسف؟ ماعندناش خالص..

فكر يوسف ثم قال له:

- خلاص أنا هكلم أسامة يتصرف في أسرع وقت. بس بكرة لازم تنفذ الخطوات اللي هقول لك عليها دي بالحرف، وأمك هتبقى معاك، ومحدش فينا هيجرى له حاجة.

* * *

- بص يا شريف انت ظابط ممتاز، أنا أشهد لك بده بكل تأكيد.. بس القضية بقالها شهور مفتوحة، وماوصلتش لأي حاجة.. لو ماحصلش تطور قريب، هنضطر نشيلك من القضية ونسلمها لحد تاني.

بهذه الكلمات استفتح شريف الزيني يومه، وما كانت تنقصه كي تزيده إحباطًا على إحباط. كان قد جعل من هذه القضية أكبر أولوية له في حياته، حتى بدأت تؤثر على حياته الشخصية، وبرغم ذلك لم يكن قادرًا على الوصول إلى شيء. جلس في مكتبه يفكر. لابد أن هناك تفصيلة واحدة فقط، لو انتبه لها ستفتح القضية على مصراعيها.

طرق أحدهم على الباب فقال شريف:

- اتفضل!

دخل أحد العساكر إلى المكتب، وبعد أن أدى التحية ناوله كومة من الأوراق وقال له:

- الملفات اللي طلبتها يا فندم.

- تمام.. انصراف.

كانت هذه ملفات أمين الشرطة أبوزيد. كان شريف لا يصدق أنه مات، أو على الأقل كان يدرك أن في الأمر لغزًا يكشف القضية بأكملها. صار الآن بداخله يوقن أن يوسف هو من اتصل به وأخبره بتحري أمر الأمينين، وبدأ يشك في كونه محقًا.

فتح شريف الملفات وأخذ يقرأها واحدًا تلو الآخر. ملف أبوزيد في وزارة الداخلية، تقرير المشرحة، سجله المدني. كل ما يمكن أن يتم الوصول إليه طلبه شريف.

أمرٌ واحد كان لا شك فيه. عاش أبوزيد حياة عادية جدًا. لا يوجد أي مدعىً للشك فيه. برغم ذلك كان شريف ما زال يشك. وفي النهاية، بعد ما أمضى ساعة أو أكثر يقرأ، وضع شريف تقرير المشرحة أمامه وتنهد في خيبة أمل.

لكن فجأة، لفتت انتباهه تفصيلة ما. عندما وضع تقرير المشرحة أمامه كان بجانبه ملف أبوزيد

الأمني، ولاحظ شريف اختلافًا في فصيلة الدم بين الملفين. أمسك شريف بالتقرير مرة أخرى مسرعًا، وبدأ يقارن بين التفاصيل الجسدية في الاثنين. الطول مختلف عدة سنتيمترات. ماذا يعني هذا؟

هل يعقل أن أبوزيد لم يمت حقًا؟ إذًا جثة من هذه، وأين ذهب هو؟؟

ربما لم يضف هذا سوى أسئلة أكثر من الإجابات إلى عقل شريف الزيني، لكنه بداخل شعر ببارقة أمل، فعلى الأقل يوجد الآن محرك جديد للقضية.

* * *

كيف تصل إلى شخص، العنوان الوحيد الذي تمتلكه له هو اسم مدافن عائلته؟ ظل هذا السؤال يؤرق ذهن شريف الزيني لأيام تالية، قبل أن يصل لإجابة. لو أن أحدهم يعرف كيف يصل له، ستكون زوجته بكل تأكيد. طلب شريف الزيني من قياداته تعيين رقابة على زوجة أبوزيد، بعدما أراهم ما

اكتشفه في الملفات، وأخبرهم بشكوكه فيه.

بعد عدة أيام من متابعتها، لاحظ ترددها الدائم على مكانٍ معين، في موعدٍ معين كل أسبوع. بدا له أخيرًا أن القضية ستنفتح على مصارعيها..

* * *

وقف يوسف على كورنيش النيل يتأمل النهر الهادئ ليلًا، ويرقب انعكاس أنوار فنادق الناحية الأخرى على مياهه. كان هذا المكان حيث اعتاد أن يجلس مع أسامة قديمًا بعد المدرسة، ليتحدثا عمومًا في كل شيء. ما هي إلا دقائق حتى وصل أسامة ووقف بجانبه، وساله:

- عامل ايه دلوقتي؟

رد عليه يوسف:

- الحمد لله أحسن.. ابتديت اتقبل الواقع..

- ربنا يكون في عونك.

ثم أخرج له أسامة ورقة وتلفت حوله قبل أن يناوله إياها، قائلًا:

- دي قايمة مكالمات رقم ضياء جدو زي ما طلبت..

نظر لها يوسف، فلاحظ أن رقمين معينين يتكرران دائمًا في آخر الليل. قال يوسف لأسامة:

- هحتاج منك حاجة كمان، بس صعبة المرة دي..

- أأومر يا صاحبي.

- عايزك تسجلي ولو مكالمة واحدة لكل رقم من الاتنين دول.

صمت أسامة لحظة مفكرًا، قبل أن يقول:

- دي صعبة.. ممكن أتكشف، ولو حصل هترفد فيها، ومش بعيد أخش السجن.

ألح عليه يوسف:

- انا عارف يا أسامة ان طلباتي كتير وصعبة، بس ماعنديش حد تاني يقدر يساعدني. أنا محتاج كل

معلومة أقدر أمسكها عليهم، وانت سكتي الوحيدة لده.

فكر أسامة مرة أخرى، ثم قال:

- هحاول يا يوسف بس ما اوعدكش. لو لقيت فرصة هجيبها لك.

ابتسم له يوسف قائلًا:

- شكرًا يا أسامة. مش عارف من غيرك كنت عملت عليه.

ودع الشابان بعضهما البعض، ثم انطلق كلٌ منهم في اتجاه.

* * *

مكالمة الرقم الأول لضياء جدو:

- آلو يا ضياء ازيك؟ واحشني..

- وانتي كمان يا قلبي.. عاملة ايه؟

- مش عارفة.. مش مرتاحة..

- ليه كده بس؟

- ميدو بقى بيعاملني بطريقة. بقى بيشك على طول، بيتدخل في خروجي وحركتي.. تعتقد ممكن يكون عرف؟

- هيكون عرف ازاي بس؟ ماتقلقيش..

- انت عارف ان أبوه الطوانسي واصل، وله عيون في كل مكان..

- ما بابا أنا كمان له عيون، وأنا ليا عيون.. صدقيني مستحيل يعرف..

- ماشي.. هحاول أتطمن..

- وبعدين انتي مش ناوية تطلبي منه الطلاق بقى؟

- بصراحة.. خايفة منه..

- ليه بس؟ ماتخافيش من حد وأنا معاكي!

- مش عارفة بقى.. ممكن على الأقل نغير المكان المرة الجاية، عشان لو بيراقبني مايشكش اني بروح نفس المكان كل مرة؟

- امممم.. هشوف وأقول لك.. أنا هقوم بقى دلوقتي عشان ورايا شغل.. سلام يا روحي..

- باي يا ضياء..

* * *

مكالمة الرقم الثاني لضياء:

- أيوة يا ضياء باشا.. ايه الأخبار؟

- قلت لك مافيش أخبار.. لما ينفع هقول لك انه ينفع. ماتفضلش تزن انت.

- حاضر ماشي.

- بقول لك.. أنا محتاج منك حاجة قريب. هعدي عليك نتكلم فيها كمان ساعة.

- تحت أمرك يا باشا.

* * *

جلس يوسف يفكر. المكالمة الأولى واضحة. زوجة ميدو الطوانسي تخونه مع ضياء. هذه معلومة لا تتعلق بالقضية، لكنه يمكنه أن يستغلها. أما المكالمة الثانية، من هذا؟

أعاد يوسف سماع المكالمة مراتٍ كثيرة. يكاد يقسم أنه سمع هذا الصوت من قبل. وفي المرة السادسة صدمته الحقيقة أخيرًا. كان هذا صوت أبوزيد!

قرر يوسف التحرك بسرعة. طلب من أوفة الاتصال سريعًا بحمدي أذيه، وأن يطلب من روسيا ورجاله أن يراقبوا كل تحركات ضياء جدو.

انتظر يوسف يومين، ثم جاءه حمدي أذيه بالنبأ اليقين. هذه المرة صور روسيا ضياء جدو جالسًا مع أبوزيد، بل واستطاع التنصت على محادثاتهم في سيارة الأول.

اجتمع يوسف للمرة الأولى مع كل حلفائه، أسامة وحمدي أذية وأوفة، وحتى روسيا، في مخبأ أوفة وعائلته الذي دبره لهم أسامة. بدأ كلٌ منهم يدلو بما عرفه من معلومات:

- ضياء بيطلب من أبوزيد يفضي له الشقة يوم في الأسبوع، بيتقابل فيه مع مرات ميدو الطوانسي.

- وأبوزيد دايمًا بيفضل مستنيهم على القهوة اللي قدام البيت لما يخلصوا.

- وايه استفادته من ده؟

- هو معتقدش له أنه يرفض، بس في نفس الوقت هو غالبًا عايز يدي نفسه أهمية عند ضياء جدو، عشان التخلص منه مابيقاش سهل.

- وهو ضياء جدو مايقدرش يجيب شقة تانية؟

- يقدر.. بس الطريقة دي سرية أكتر، تضمن ان أبوزيد المخلوق الوحيد بس اللي يعرف..

قال يوسف:

- ولو مابقاش هو الوحيد اللي يعرف، هنقدر نفتح أبواب جهنم عليهم..

وبدأ يوسف يضع خطته الأخيرة. بدأ بتجميع كل الأدلة التي وصلوا لها على مدار الشهور الماضية، ثم طلب من حمدي أذيه أن يسرب خبرًا لشريف الزيني عن طريق أحد أصدقائه المخبرين، عن وجود يوسف في شقة أبوزيد، في موعد لقاء زوجة ميدو وضياء جدو. ثم قام يوسف بوضع المكالمة المسجلة لضياء وزوجة ميدو على شريط، ومعها رسالة تخبر ميدو بالمكان والزمان، ليكشفهم بنفسه. ابتسم يوسف وقد بدأ يشعر بأن الفرج قد اقترب.

* * *

الساعة الخامسة عصرًا من يوم الثلاثاء، موعد لقاء الخائنة وعشيقها كل أسبوع.

راقب يوسف من بعيد أبوزيد الجالس على القهوة، وتمنى بداخله ألف مرة أن يذهب ويشنقه بنفسه،

لكنه أخذ يردد لنفسه:

- اصبر يا يوسف.. فاضل على الحلو تكة.

فجأة، ظهرت سيارة ميدو الطوانسي الفارهة، حيث اقتحمت الشارع بسرعة قبل أن يتوقف أمام العمارة ويترجل منها. قام أبوزيد من مكانه مرتبكًا لا يدري ماذا يفعل، قبل أن يسرع بالجري نحوه مناديًا:

- ميدو باشا.. ازي حضرتك؟!

تجاهله ميدو ودخل العمارة صاعدًا لأعلى. وقف أبوزيد وحاول الاتصال بضياء ليحذره، لكنه أدرك أنه لا يوجد وقت كافي، فأسرع يصعد وراء ميدو الطوانسي مناديًا عليه. لم يعره ميدو انتباهًا، وعندما وصل للمكان الذي أخبره به يوسف، أخرج من جيبه مسدسًا، وطرق الباب بعنف.

فتح ضياء جدو الباب، فصدمته رؤية ميدو، الذي دفعه للداخل وهو يصيح فيه:

- مراتي يا ضيا!

ورفع المسدس نحوه، فقز أبوزيد نحوه ودفعه، ليسقط المسدس من يده، فقفز ضياء على الأرض ليمسكه، وأطلق هو الرصاص على ميدو فأصابه في قدمه، ليسقط أرضًا. في هذه اللحظة عندما سمعوا صوت اطلاق الرصاص بالأعلى، قال يوسف لحمدي أذيه وأوفة ومن معهم من الرجال:

- دلوقتي اللحظة المناسبة! يللا بينا!

وبالفعل جروا صاعدين السلالم حتى وصلوا الشقة، ودخلوها عليهما وأحاط بهما رجال حمدي أذية المسلحين، بينما ظهر الرعب على جميع الموجودين، عدا زوجة ميدو التي تكن تفهم ما الذي يدور!

صاح أبوزيد:

- انت! ازاي!

اقترب منه يوسف وأمسك به من قميصه وصاح

فيه:

- مفاجأة مش كده؟

بالأسفل، كانت سارينات الشرطة قد بدأت تظهر، فبدأوا بتكبيل أيدي ضياء وأبوزيد، وميدو المصاب، بينما صعد شريف الزيني مسرعًا لأعلى ومعه القوة.

كان آخر ما يتخيله شريف الزيني أن يرى هذا المشهد عندما اقتحم الشقة، أبوزيد، الذي ظنه قتيلًا يقف، وراءه يوسف الذي طارده طوال كل هذه الشهور. صاح شريف:

- كله يقف مكانه ماحدش يتحرك!

رد عليه يوسف:

- لحظة بس يا شريف باشا. أنا اللي بلغتك بالمكان والمعاد ده، عشان تشوف بنفسك أدلة براءتي، زي ما قلت لك من أول يوم.

ثم تقدم نحوه يوسف وهو رافعًا يديه إلى أعلى،

وقال:

- اتفضل حضرتك.. الصور دي متسجل فيها كل حاجة تثبت علاقة سمير جدو رجل الأعمال، بأمناء الشرطة مصطفى وأبوزيد.. بتثبت تورط أبوزيد في قتل مصطفى.. وبتثبت ان ده كان بالاتفاق مع سمير جدو، والد ضياء جدو اللي أنا قبضت عليه قبل ما الشابين – اللي كانوا هيشهدوا ضده في المحكمة - يموتوا في الحجز بيومين.. واللي سعادتك شايفه قدامك هنا جنب أبوزيد اللي هو كان مخبيه.

وقف شريف الزيني مصدومًا، ولم يعرف للحظة بما يرد، بينما قلب الصور في يده، ورأى بنفسه كل ما حكى يوسف عنه. أكمل يوسف:

- أنا بسلم نفسي دلوقتي بعد ما ضمنت الأدلة الكافية اللي تثبت براءتي، ومفيش سبب أفضل هربان.

ومد يوسف يده له ليضع الكلبش فيه.

أشار شريف الزيني لعسكري بجانبه ليقيد يوسف، بينما قال له:

- كده كده هنضطر نقبض عليك لحد ما تتعرض على النيابة وتقرر براءتك.

ابتسم له يوسف واثقًا، بينما أشار شريف الزيني لباقي القوة ليقبضوا على أبوزيد وضياء جدو، ويأخذوا ميدو لإسعافه، وأمر أيضًا بإحضار باقي الموجودين، فربما يقرر القبض عليهم، أو أخذ أقوالهم، لا يدري بعد.

في الساعات القليلة التالية، بعدما تحدث شريف الزيني مع قيادته، صدرت الأوامر باعتقال سمير جدو، وتركي المحامي، وأولاد مدكور.. وكانت أول من علمت الخبر نهى نورالدين، التي أطلعها يوسف على خططه كلها مسبقًا، لتستعد بالمانشيتات التي ستوجه الإعلام لدعمه، وتربط بين ما حدث وبين قضيته، كما كان قد أعطاها نسخًا من كل الصور التي حازها، لتقوم بنشرها مع هذه الأخبار.

في اليوم التالي مباشرة كان أوفة في النيابة، بعدما عاد إلى همه الصغير، قضية الحلاق الذي ضربه. طلب أوفة من أمه أن تحضر له الرجل، حيث اعتذر له أوفة كثيرًا، وعرض عليه مبلغًا كبيرًا من المال – الذي أخذه من أولاد مدكور وقت صفقة يوسف – ليقبل الصلح به. وبالفعل قبل الرجل، وتنازل عن المحضر، وخلال يومين كان يسير حرًا على الأسفلت، لأول مرة لا يشعر بأنه مطارد أو خائف منذ شهور طويلة.

استقبلته أمه وعبدالله الصغير، الذي كان يدور حوله فرحًا، وأحلام وحمدي أذيه، الذي بدا أن علاقته باوفة ستصبح أفضل كثيرًا، بعد ما مروا به في هذه المحنة.

أما يوسف، فكانت قضيته أصعب. احتاجت المحكمة أسبوعين قبل أن تصدر قرارًا أخيرًا ببراءته. وحينما لمست قدماه الأرض بعد خروجه منها، أحس أنها لا تحمله. أحس أنه يريد الطيران. أسرع يجري نحو والده يعانقه، ويبكي لأن أمه لم

تحضر معه هذه اللحظة. وتجمع من حوله أوفة وأسامة ونهى، الذين احتفوا به وهنؤوه، وصاح أوفة ضاحكًا:

- كفاااااارة.

من بعيد، رأى يوسف شابة ترقبه، ثم تقدمت نحوه قائلة:

- يوسف الألفي.. أنا هالة أخت ابراهيم، الشاب اللي مات في الحجز.. بعتذر لك على اتهامي ليك، وسعيي وراك دايمًا.. وبجد بشكرك على أنك كشفت الحقيقة، وحطيت المجرمين اللي عملوا كده في مكانهم ورا القضبان.

ابتسم له يوسف وقال لها أنه لم يستطع أبدًا أن يعزيها في أخيها، وأنه آسفٌ حقًا لما حدث. قال لها:

- إبراهيم أنا ملحقتش أعرفه، بس هو كان شاب شجاع، ضحى بنفسه عشان الحقيقة.. هو دلوقتي أكيد في مكان أحسن.

ثم قاطعهم فجأة ظهور العقيد شريف الزيني، الذي أبتسم ليوسف وأدى له التحية العسكرية، فأدرك يوسف قبل أي أحدٍ آخر، أن هذا إعلانٌ منه بعودة يوسف للخدمة.

قالت نهى ليوسف:

- ماتنساش معادنا النهاردة بليل في الاستوديو! الدنيا كلها هتعرف الحقيقة!

ابتسم لها يوسف قائلًا:

- أكيد.

* * *

تلك الليلة، سهرت مصر بأكملها تشاهد حلقة يوسف، بينما أخذ يحكي كل ما مر به. حكى عن شهامة ورجولة كل من ساعدوه، ومر بهم في حكايته، حكى بدون ذكر أسماء عن نجلاء التي كانت له كالأخت، وعن مينا ومايكل، والشباب الجدعان الذين أنقذوا قريتهم من طغيان المجرم

حناطة، وألهموه بشجاعتهم، وعن الشيخ حامد والحاج علي وكل الطيبين، الذين آووه وأسكنوه، وكانوا له عونًا في هذه الرحلة العصيبة. ولم يدر يوسف أنه بينما يحكي، كان هؤلاء جميعهم يشاهدونه في بيوتهم، فخورين بكونهم جزء من هذه الحكاية. أوفة، ونجلاء، ومينا ومايكل، وحمدي أذيه، والجميع..

انتهت الحلقة، وقام الجمهور كله في الاستوديو ليصفق ليوسف. وشعر يوسف أخيرًا أن الله يعوضه خيرًا عن كل ما مر به. وأنه بهذه المحنة قد أعدَّه لأيام جديدة مختلفة.

النهاية